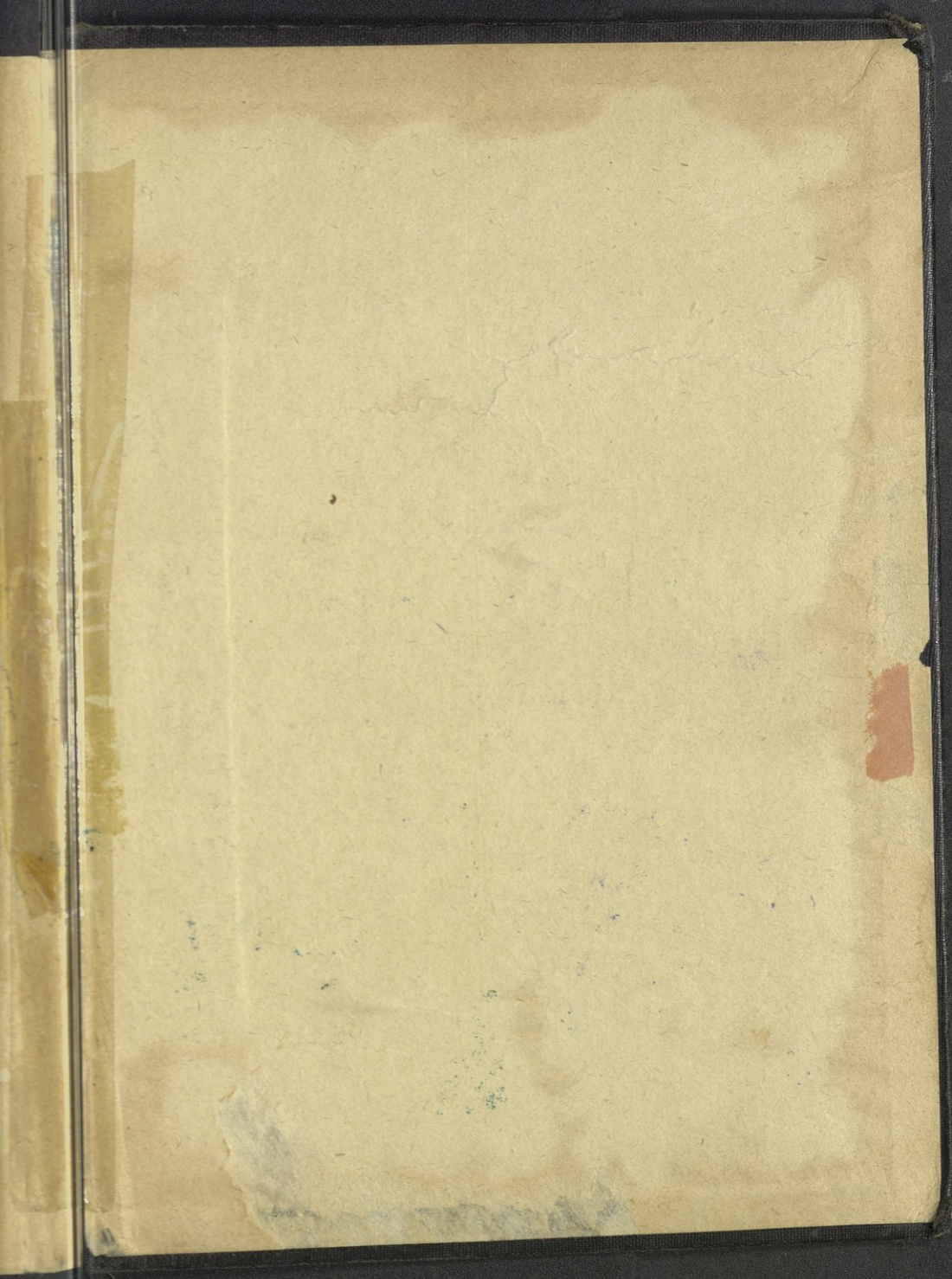


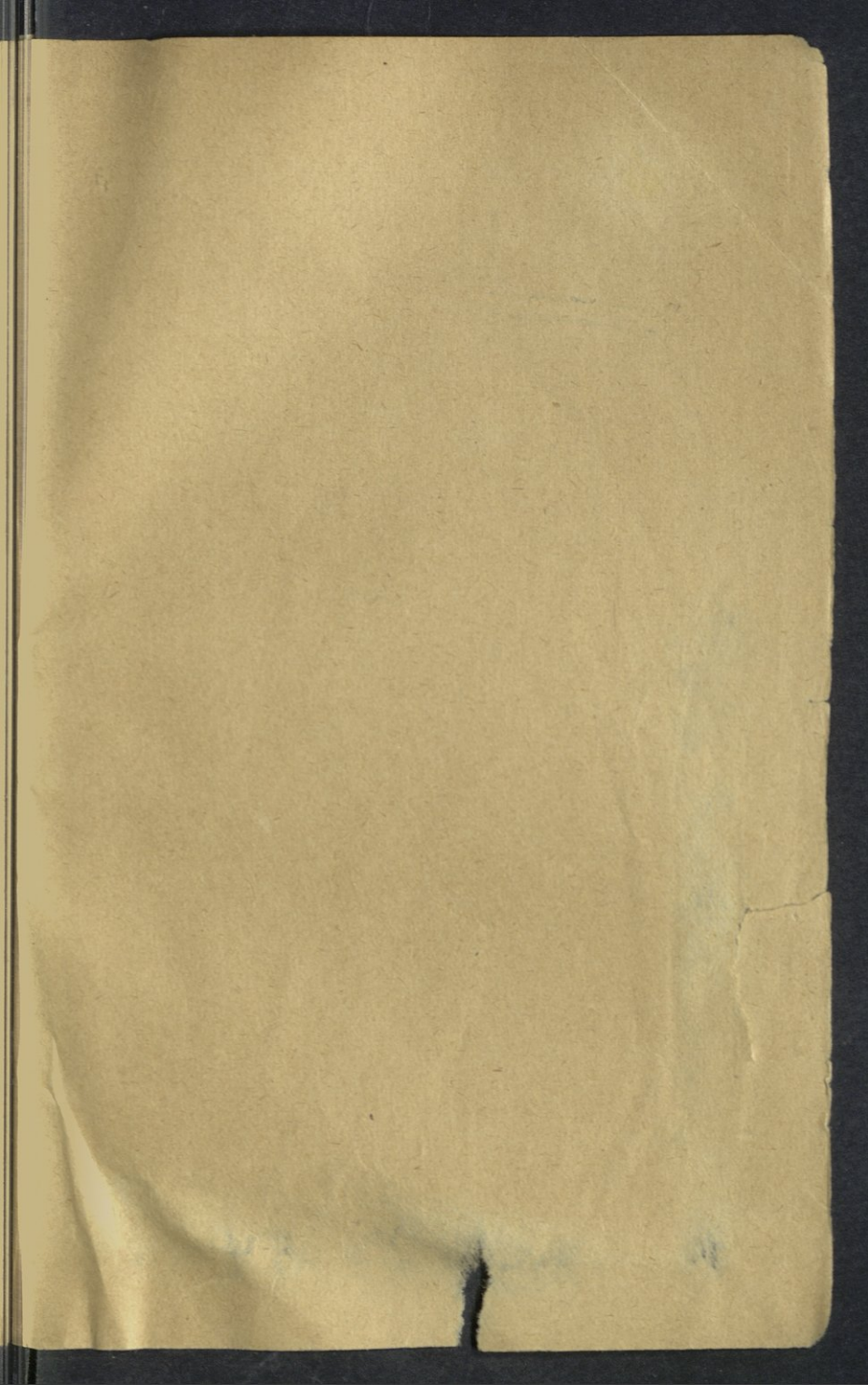


~~18 OCT 1907~~

J. Lib.

~~18 OCT 1907~~

LAFFET LIB

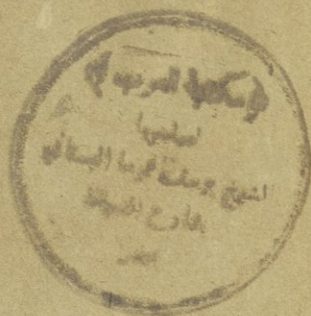




طرسین

892.78
Ha 3924w
C.1

الوعد الحق



ملزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر



« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم
 في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ولم يكن لهم دينهم
 الذي ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني
 لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم
 الفاسقون »
 صدق الله العظيم

١

قال ياسر بن عامر لأخويه مالك والحارث : «عوداً إن شئتما
 إلى أرض اليمن ، أو اضربا إن شئتما في الأرض العريضة ؛ فأما أنا
 فمقيم ، قد أعجبتني هذه الأرض فلست أعدل بها أرضاً أخرى ،
 ورضيت بهذه الدار فلست أبغى بها بديلاً . وما رحيلي عن أرض
 وجدت فيها الأمن بعد الخوف ، والقوة بعد الضعف ، والسعة بعد
 الضيق ! قال أخوه مالك : بل قل ما رحيلي عن أرض فيها هذه
 الفتاة السوداء التي لا تملك من أمرها شيئاً ، ولكنها تملك من أمرك
 كل شيء . قال ياسر : فظننا بي ما شئتما من الظنون ، ولكني مقيم
 لن أبرح هذه الأرض ولن أتحوّل عن هذه الدار . قال الحارث :
 «بعداً لك من فتى يؤثر الغربة على قرب الدار ، ومُضَرَّ على قحطان ،
 وقريشاً على عَنَس . وَيَحْك ! إنك لا تأمن أن تُسام الخسف

وَتُحْمَلْ عَلَى مَا تَكْرَهُ ، ثُمَّ تَلْتَمِسُ الْعَوْنَ فَلَا تَجِدُهُ ، وَتَبْتَغِي النَّصِيرَ
 فَلَا يُجِيبُكَ إِلَّا مَنْ يَخْذُلُكَ وَيُعِينُ عَلَيْكَ . قَالَ مَالِكُ : وَإِنْ فَتَاتَكَ
 هَذِهِ السُّودَاءُ لَمْ تَنْجُسْ مِنْ أَرْضِ مَكَّةَ وَلَمْ تَنْزَلْ مِنْ سَمَائِهَا ، وَإِنَّمَا
 أُجْلِبَتْ إِلَيْهَا فِيمَا يُجْلِبُ إِلَيْهَا مِنَ الرِّقِيقِ ، وَإِنْ شَتَّ وَجَدْتَ أَمْثَالَهَا
 فِي كُلِّ مَنْزِلٍ تَنْزِلُ فِيهِ ، وَإِنْ شَتَّ احْتَلْنَا لَكَ فِيهَا حَتَّى نَخْطِفَهَا
 وَتَعِيشَ مَعَهَا آمِنًا بَيْنَ بَنِي أَبِيكَ وَذَوَى مَوَدَّتِكَ . قَالَ يَاسِرُ : ضَعَا
 هَذَا الْأَمْرَ كَيْفَ شِئْنَا ؛ فَإِنِّي مُقِيمٌ لَنْ أُبْرَحَ هَذِهِ الْأَرْضَ ، وَلَنْ
 أَتَحَوَّلَ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ ، وَلَنْ أَجْزِيَ أَبَا حُذَيْفَةَ عَنْ الْحَسَنَةِ بِالسَّيِّئَةِ ،
 وَلَا عَنْ الْمَعْرُوفِ بِالْمُنْكَرِ ، وَلَنْ أَرْزَاهُ شَيْئًا مِنْ مَالِهِ وَهُوَ الَّذِي قَدْ آوَانَا
 وَقَرَانَا وَأَحْسَنَ مَثْوَانَا^(١) . عُودَا إِنْ شِئْنَا إِلَى أَرْضِ الْيَمَنِ ، أَوْ اضْرَبَا إِنْ
 شِئْنَا فِي الْأَرْضِ الْعَرِیْضَةِ ، فَأَمَّا أَنَا فَفَقِيمٌ ، وَمَا أَرَى إِلَّا أَنْ لِي فِي
 هَذِهِ الدَّارِ شَأْنًا . قَالَ الْحَارِثُ : شَأْنُ الرِّقِيقِ الَّذِي لَا يُسْتَكْرَهُ عَلَى
 عَلَى الرِّقِّ ، وَإِنَّمَا يَسْعَى إِلَيْهِ سَعِيًّا وَيُمَعِّنُ فِيهِ إِمْعَانًا ؛ فَإِنْ رَفَقَ
 الْقَوْمُ بِكَ وَآثَرُوكَ بِالْخَيْرِ فَشَأْنُ الْحَلِيفِ الَّذِي يُعَالُ وَلَا يَعُولُ . قَالَ
 يَاسِرُ : عُودَا إِنْ شِئْنَا فَإِنِّي مُقِيمٌ . قَالَ الْحَارِثُ لِأَخِيهِ مَالِكُ :
 دَعْنَهُ فَمَا عَلِمْتَهُ إِلَّا نَكِيدًا لَا خَيْرَ فِيهِ .

وَرَأَى الصُّبْحُ حِينَ أُسْفِرَ مِنَ الْغَدِ غُلَامَيْنِ يَخْرُجَانِ مِنْ مَكَّةَ
 يَقُودَانِ رَاحِلَةً قَدْ وَهَبَهَا لَهَا أَبُو حُذَيْفَةَ بْنُ الْمُغِيرَةِ ، وَيَسْعَى مَعَهُمَا

(١) رَزَاهُ مَالُهُ : أَصَابَ مِنْهُ شَيْئًا فَنَقَصَهُ . وَآوَانَا : أَتْرَكْنَا عِنْدَهُ فِي مَنْزِلِهِ .
 وَقَرَانَا : أَضَافْنَا .

أخوهما ياسر سعى المودع لا سعى من أزع الرحيل . وكان هؤلاء
 الفتية الثلاثة قد خرجوا من دارهم بنهامة اليمن يلتمسون أخاً لهم
 فقدوه ، فطوفوا في الأرض ما طوفوا ، وبحثوا عن أخيهما ما بحثوا ،
 فلما استياسوا منه عادوا إلى أرضهم ، ومروا بمكة أثناء عودتهم ،
 وقد بلغ منهم الجهد ، وأضناهم سفر غير قاصد . فقال بعضهم
 لبعض : نأوى إلى هذه القرية فلنم بيتها ونسأل آلتها ونصيب فيها
 حظاً من راحة ، ونسأل أهلها معونة على ما بقى لنا من الطريق .
 وأووا إلى مكة وطافوا بالبيت وسألوا الآلهة فلم يجدوا عندها
 شيئاً ، ثم أقاموا في المسجد ينتظرون أن تغدو قريش إلى أنديةها .
 فيمر بهم ، حين يرتفع الضحى ، أبو حذيفة بن المعيرة الخزومي ،
 فيرى ما أصابهم من الضر ، فيضمهم إليه ويكرمهم ، كما تعودت
 قريش أن تكرم الضيف .

وكان أبو حذيفة قد وكل بخدمة هؤلاء الضيف سمية بنت
 خياط أمة سوداء ، في أول الشباب ، عليها من الجمال نضرة قائمة
 ببعض الشيء ، وفيها من الشباب خفة ومرح ونشاط ، وفي لسانها
 المستعرب عذوبة حسنة الموقع في الآذان والقلوب .

فكانت تغدو على هؤلاء الفتية بطعامهم أول النهار . وتروح
 عليهم بطعامهم إذا أقبل الليل ، وتعمل في خدمتهم بين ذلك ،
 وتتحدث إليهم ، وتسمع منهم بين حين وحين ، وكأنها قد وقعت
 في نفس هذا الفتى فحببت إليه الإقامة بمكة . ومن يدرى ! لعله

أن يكون قد تحدث إليها في شيء من ذلك فأحس منها مثل ما أحس من نفسه : ميل الغريب المستوحش إلى الغريب المستوحش . وقد همّ الفتي أن يحمل نفسه على ما تكره ، ويعود مع أخويه إلى حيث ينتظرهما أبٌ شيخ حزين وأمٌ شبيخة ملتاعة . ولكن الفتي لم يستطع أن يحمل نفسه على ما أراد . وحياة الناس ليست رهناً بما يريدون ، وليست مستجيبة لما يقدرّون ، وإنما هي أمور خفية يُجريها القضاء ، لا يؤامر^(١) فيها أحداً ، ثم يكون لها في حياة الناس من الآثار ما لم يكن ليخطر لهم على بال . والشئ الذي ليس فيه شك هو أن الأخوين قد خرجا من مكة يقودان راحتهما بيمهان^(٢) تهامة اليمن ، فضاء في الدنيا وفي التاريخ ، ولم يعرف أحد عنهما شيئاً ، كما لم يعرف أحد عن أخيهما الضائع وأبويهما الشيخين شيئاً .

وعاد الفتي ياسر بعد أن ودّعهما إلى مكة ، فأقام فيها ضيفاً على أبي حذيفة أول الأمر ، ثم حليفاً لأبي حذيفة بعد ذلك ، ثم زوجاً لسمية أمته السوداء تلك . ومنذ ذلك الوقت عرفت الدنيا وحيفته التاريخ .

(١) يؤامر : يشاور .

(٢) بيمهان : يقصدان .

وذلك أن أبا حذيفة انصرف من ناديه ذات يوم ، فلقى وهو رائح إلى داره ياسراً غير بعيد من المسجد ، فقال له مبتسماً : ما فعل أخواك يا فتى عننس ؟ قال الفتى : آثراً قُرب الدار على بُعدها ، فعادا إلى قومهما . قال أبو حذيفة : وآثرتَ بعد الدار على قربها فأقمتَ في مكة . قال الفتى : بل آثرتُ هذا الحرم الآمن على غيره من مواطن الخوف ، وآثرتُ جوارَ هذا البيت العتيق على ما في اليمن من ضلال وغى . قال أبو حذيفة : وماذا تريد أن تصنع في مكة ؟ قال الفتى : ألتبس القوتَ من مصادره . قال أبو حذيفة : فإنَّ القوتَ مُيسَّرٌ لك ما بقيتَ لي جاراً . قال الفتى : بأبى أنت من سيد كريم تُزهِى به مخزومٌ وتزدان به قریش وتُعزِّ به البطحاء ! إنك والله ما علمتَ لستحيي النفس رضى السيرة ، تحفظ الضائع وتطعم الجائع ، وتعطى السائل وتُغنى العائل ، وتحمى الجار وتُغيث الملهوف . قال أبو حذيفة : حسبك يا فتى ؛ لقد جزيتَ فأربيت ، وإني لأرى فيك ذكاءً ولسناً ^(١) ، فأنت جار لي ما أقمتَ في هذه القرية . قال الفتى : لا وعدك ذم ^(٢) ، ولكنى أدعوك إلى خطبة سِواء بيني

(١) اللسان : الفصاحة .

(٢) أى جاوزك ولم يصبك ما تدم به . وهذا من أساليب العرب التى تصطنعها فى الدعاء عند الخطاب .

وبينك لا تشقّ عليك ولا تخفف عني : تحميني مما تحمي منه نفسك وأهلك ، وأكون حرباً على من حاربت ، وسكناً لمن سالت ، ووقاء لك ولأهلك من العاديات ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً . قال أبو حذيفة : فهو الحليفُ إذن ؟ قال الفتي : نعم ، إن طابت نفسك به . قال أبو حذيفة : فقد طابت به نفسي ، واطمأن إليه قلبي ، فإذا كان الغدُ فوعدنا المسجد . قال الفتي : فإنك من المسجد غيرُ بعيد ، وما أحب أن نُرجى إلى غد ما نستطيع أن نأتيه اليوم . قال أبو حذيفة : فلهلم إذن .

وأخذ بيد الفتي ، ورجع أدراجَه خطوات . فلما بلغ المسجد قصد الكعبة . قال الفتي : إلى أين تريد ؟ قال أبو حذيفة : أريد أن أشهد الآلهة على حلفنا . قال الفتي متضحكاً : فأشهد عليه قومك قبل أن يتفرقوا ، فإن الآلهة مقيمة حيث هي لا تريم^(١) . قال أبو حذيفة : ما رأيت كاليوم فتى ذكياً أريباً . ثم مضى به إلى أندية قريش ، فجعل لا يمر بناد منها إلا قال : يا معشر قريش ، اشهدوا على أتي قد حلفتُ ياسر بن عامر هذا العنسي . وجعل لا يقول ذلك لناد من أندية قريش إلا قالوا له : سعت غير مذموم ، وحلفت غير ملوم .

فلما طوّف به على أندية قريش كلها قصد به قصد الكعبة . قال الفتي : إلى أين تريد ؟ قال أبو حذيفة : إلى حيث أشهد الآلهة

(١) لا ترح ولا تفتل .

على حلفنا . قال الفتي متضحكاً : وَيَحْكُكْ أبا حذيفة ! أتظن أن
الآلهة لم تسمعك وأنت تُشهد الناس ؟ فهى قد سمعت وشهدت
ورضيت ، أم تُراها لا تسمع إلا إذا دنوت منها كما يدنو الرجل
من الرجل حين يريد أن يُناجيه ؟ قال أبو حذيفة : ما أرى إلا
أنى قد حالفت اليوم شيطاناً ! ويحك يا فتي عَنَسَ : فإننا قد أَلِفْنَا
أن نقف من آلهتنا موقف المتحدث إليها المناجى لها . قال الفتي :
فَقِفْ منها هذا الموقف حيث شئت ؛ فإنها ينبغي أن تكون معك
فى كل مكان . قال أبو حذيفة وقد أخذه شيء من وجوم ، كأن
الفتي قد ردّ إليه شيئاً غاب عنه ، أو ردّه إلى شيء غاب عنه :
فلا أقلّ من أن نطوف بالكعبة ليتمّ لهذا الحلف حقه من الحرمة
والتقديس . قال الفتي : أما هذا فنعم . ثم مضيا فطوّفا بالكعبة
ما شاء الله أن يطوّفا بها ، وراحا إلى دار أبى حذيفة حليفين ،
ولكن بينهما من الأمر أكثر مما يكون بين الحليف والحليف .
يقول أبو حذيفة للفتي فى طريقهما إلى الدار : ويحك يا عَنَسى ؛
إنى لأرى فبك استخفافاً بآلهتنا وازوراراً عنها . أفتراك لم تنس آلهة
عنس بعد ، ولم تُردّ أن يخلص قلبك لغيرها ؟ فيقول الفتي : بأبى
أنت يا أبا حذيفة ! والله ما ذكرتُ آلهة عنس قطّ فأنساها اليوم
أو استبقي ذكرها فى قلبى ، وما أعرف أنى غدوت عليها مُصْبِحاً
أو رحت إليها مُمِسيّاً ، وآمنت لها بسلطان . قال أبو حذيفة : فقد
صبوت إذن عن آلهة آبائك إلى إله النصارى أو اليهود ؟ قال الفتي :

لقد لقيت أولئك وهؤلاء وسمعت منهم ، ولم أفهم عنهم ولم أحاول لأحاديثهم فهماً . قال أبو حذيفة : فليس لك إله إذن ؟ قال الفقى : لو كنت متخذاً إلهاً لعبدت البحر الذى يَرُوعْنى وَيُرَوِّعْنى ، أو الشمس التى تضىء لى أثناء النهار ، أو النجوم التى تهدينى أثناء الليل ، أو السحاب الذى يطعمنى ويسقئنى . ولكن شيئاً من ذلك لا يبلغ نفسى ولا يتحدث إلى قلبى ولا يثير حاجتى إلى العبادة والطاعة والإذعان . فأنا جائر جائر عن قصد ، أتمس الهدى فلا أجد إليه سبيلاً ، فأعيش مع الناس مشاركاً لهم فى الدنيا مفارقاً لهم فى الدين . قال أبو حذيفة : إن لك لشأناً يا فقى عنس . قال الفقى : كغبرى من الناس ، إلا أنى أفكر فى هذا كثيراً ، ولا يفكرون فيه إلا قليلاً .

وبلغا دار أبى حذيفة فأنفقا فيها سائر النهار وشطراً من الليل يخوضان فى أحاديث الدين والدنيا وفى أحاديث تهامة ونجد والحجاز . وقد وقع حب الفقى فى قلب أبى حذيفة موقعاً غريباً ، حتى قال لنفسه ولأهله حين خلا إلى أهله : ما أحببتُ غريباً قط كما أحببتُ هذا الفقى ، ولو كنتُ متخذاً ولداً لاتخذته ولداً .

وأقام ياسر ما شاء الله أن يُقيم ضيفاً على حليفه أبي حذيفة ،
 يغدو إلى المسجد مُصْبِحاً فيقول لقريش ويسمع منهم ، ويروح
 إلى الدار بعد أن تزول الشمس ، فلا يقيم فيها إلا ريثما يصيب
 شيئاً من طعام وراحة ، ثم يخرج فيمشي في الأسواق ، ويتعرف
 أمر الناس ، ويلتمس أسباب الرزق ؛ حتى إذا يُسِرَّتْ له الوسائل
 للعمل والكسب أراد أن يتحول إلى دار له ، وأذن^(١) أبا حذيفة
 بذلك ، فلم ير أبو حذيفة بذلك بأساً ، ولكنه رأى الفتي متردداً
 في نفسه ، لا يُقدم قلبه إلا لِيُحْجِمَ ، وهو يحيل طرفه في الدار
 فعل من يجد في التحول عنها مشقة وحزناً . قال أبو حذيفة : إني
 لأراك متردداً محزوناً يا فتي ، وما أعرف أن داري قد ضاقت بك
 أو أن أحداً من أهلها قد نالك بمكروه ، فما يمنعك أن تقيم فيها
 كما أقمتَ إلى الآن ، حتى يتسع لك العيش وتتصل بك أسبابه
 متينة مطمئنة ؟ قال الفتي : لا والله يا أبا حذيفة ما أنكرتني دارك
 ولا أنكرتها ، وما لقيتُ من ضيافتك إلا خيراً ، ولكن لي في دارك
 أرباباً^(٢) قد كنت أظن أني أستطيع السلو عنه ، ثم تبين لي أن ليس

(١) آذنه : أعلمه . (٢) الأرب : الحاجة .

لى إلى هذا السلو سبيل . قال أبو حذيفة ، وقد أخذه العجب :
 لك فى هذه الدار أرب ! وما عسى أن يكون ؟ فأطرق الفتى قليلا ،
 وغشيت وجهه سحابة رقيقة حمراء^(١) ، ثم رفع رأسه وكأنه قد أجمع
 أمره على شىء عظيم ، وقال وعلى ثغره ابتسامة فيها كثير من الجراءة ،
 وفيها كثير من الحياء : أمتك هذه السوداء التى تسمونها سُمَيَّةَ ،
 قد وقع حبها فى قلبى يا أبا حذيفة ؛ ولا والله ما كانت منى إليها
 ريبة فى نظر أو حديث . قال أبو حذيفة ؛ فتريد أن أهبطها لك ؟
 قال الفتى : لا والله لا أرزؤك فى مالك . قال أبو حذيفة : فإنك
 لا ترزؤنى فى مالى شيئا ، وإنما هى أمة والإماء فى الدار كثير .
 قال ياسر : لا والله لا أرزؤك فى مالك ، وما أثرتُ الحلف على
 الجوار إلا لتخف مؤونتي عليك ، وما أحب أن تقول مخزوم أقام
 فى الدار مقام الضيف ، ثم لم يتحول عنها كما أقبل عليها . قال
 أبو حذيفة : فإن شئت زوّجتك منها . قال الفتى وقد أغرق فى
 ضحك متصل : هيهات يا أبا حذيفة ؛ أريد أن ألد لك الإماء
 والعبيد ؟ قال أبو حذيفة وقد ضرب على كتف الفتى بيده : ويلك !
 لقد عنيتنى منذ اليوم ، تزوّجها وما ولدت لك من ولد فهو حر .
 قال ياسر بأبى أنت من سيد كريم ؛ ألم أقل إنك فخر مخزوم
 وزينة قریش وعز البطحاء . قال أبو حذيفة : حسبك ؛ فقد
 أسرفت فى الثناء . أقبل على إذا كان المساء فتزوج ، ثم تحول

بأهلك إلى دارك الجديدة ، وعسى ألا ترى فيها إلا خيراً .
 ولم يكد ياسر يتحول بسمية إلى داره حتى غفل عنه التاريخ
 دهرًا طويلًا ، كما تعود أن يغفل عن الدهماء حين تحيا وحين تموت
 وحين تُلِمُّ بها الأحداث وتختلف عليها الخطوب . وماذا عسى أن
 يصنع التاريخ بفتى من عامة الناس ودهماءها ، ليس له خطر في
 مكة ولا مكانة في قريش ، وإنما هو غلام أجنبي حليف ، يعيش
 كأمثاله من هذه الأخطا التي كانت تعيش في مكة ساعية إلى
 رزقها أيسر السعى ، تكسب القوت ما وجدت إليه سبيلا ، فإن
 أعيانها كسبه وجدت حاجتها عند أحلافها من سادة قريش . وهى
 مع ذلك آمنة على أنفسها وعلى ما أتيح لها من مال ، لا يعدو عليها
 عاد ولا يسعى إليها مكروه .

وكان التاريخ في ذلك الوقت ، كما كان في أكثر الأوقات ،
 أرسنقراطياً لا يحفل إلا بالسادة ، ولا يلتفت إلا إلى القادة . وكان
 التاريخ في ذلك الوقت ، كما كان في أكثر الأوقات ، ضئيلاً بخيلاً
 ومستكبراً متعالياً ، يحفل بالسادة في تحفظ ويلتفت إلى القادة في
 كثير من الاحتياط ، لا يسجل من أمرهم إلا ما كان له شأن
 أو خطر . وآية ذلك أنه لم يسجل من أمر قريش في تلك العصور
 إلا أطرافاً بسيرة ضئيلة لا تكاد تُظهرنا من أمرهم على شيء ، كأن
 لتاريخ كان يراها أهون شأنًا وأيسر خطرًا من أن يمنحها عنايته ،
 وكأنه كان يرى قياصرة الروم وأكاسرة الفرس وقادة أولئك وهؤلاء

وسادتهم أحقّ بعنايته وأجدر برعايته وأحرى أن يقف عندهم ويبلو أعمالهم ويسجّل أخبارهم . فأما سادة قریش وقادتها وذوو المكانة في هذه الأحياء العربية التي لا تُحسن كتاباً ولا حساباً ، ولا تُسخر الزمان والمكان لأمرها ، وإنما تختلس حياتها من الزمان والمكان والأحداث والخطوب اختلاصاً ، فلم يكونوا أحرى أن ينظر التاريخ إليهم إلا شزراً ، وأن يسجل من أمرهم إلا ما فيه تفكّهة للأجيال المقبلة وترويحٌ عليها وتسلية لها عن بعض ما يشغلها من الخـم ، فكيف بالدهماء التي لا تملك المال ولا تصرّف التجارة ولا تقوم بأمر الآلهة ولا تدبّر السلطان ، وإنما تسقط حياتها تسقطاً وتلقطها تلقطاً ، وتعيش مما يُلقى إليها الأغنياء والسراة من الفتات .

وكان ياسر من هذه الدهماء ؛ فلم يحفل به التاريخ ولم يلتفت إليه ، ولم يصحبه في حياته الطويلة ، ولم يسجّل غدوّه على الناس الرزق ، ولا رواجه على أهله بما اكتسب منه . حتى كان يومٌ أكبره التاريخ فيه على أن يلتفت إلى الدهماء أكثر مما يلتفت إلى السادة والقادة ، وعلى أن يسجّل من أمر ياسر وأمثاله من عامة الناس أكثر مما يسجل من أمر حلفائه من بني مخزوم وأمثالهم من الملأ والسادة في قریش .

في ذلك اليوم نظر التاريخ فإذا أحداثٌ ضئيلة تحدثت لا يكاد الناس يأبهون لها^(١) ولا يُعنّون بها ، ولكنها لا تكاد تحدث حتى

(١) لا يأبهون لها : لا يفتنون لها .

تخفق لها القلوب وتفتتح لها العقول وتضطرب لها الضمائر ، وحتى
تعرف الدهماءُ نفسها وتشعر بحقها وتطمح إلى هذا الحق وتسعى إليه
جادة لا وانية ولا فاترة ، وحتى ينكر الملا^(١) من قریش كل
شيء : يرون المستضعفين في الأرض وقد سمّت نفوسهم إلى أشياء لم
تكن تسمو إليها ، وطمعت قلوبهم في أشياء لم تكن تطمع فيها ،
وانطلقت ألسنتهم بأشياء لم تكن تنطلق بها . ويرون الرقيق وقد
طمحوا إلى الحرية واشتاقوا إليها وهاموا بها وجعلوا يتحدثون فيما بينهم
كأنهم ليسوا أقل من سادتهم استحقاقاً للحياة ، ولا استئثالا للكرامة ،
ولا ارتفاعاً عما ينقص ، ولا تنزهاً عما يشين . كلُّ قد خلق جسمه
من تراب ، وكلُّ يصير جسمه إلى تراب ، لا تمايز أجسامهم حين
تولد ، ولا تمايز أجسامهم حين تموت ، وإنما تمايز نفوسهم وقلوبهم
وضمائرهم بين ذلك ، بما تقدّم من الخير ، وما تتجنب من الشر ،
وبما تتقى من الإثم ، وما تصطنع من البرّ والمعروف . ثم يتحدثون
بأن نفوسهم وقلوبهم وضمائرهم تمايز بعد الموت بما تلقى من جزاء
أعمالها ؛ فمن يعمل مثقالَ ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقالَ ذرة
شراً يره . ثم يتحدثون فيما بينهم بأن حرية الحر لا تفضله على غيره
من الناس إلا إذا آمن و عمل عملاً صالحاً ولم يؤذ الناس بيده
ولا بلسانه ولا بقلبه ، وأنّ رقّ الرقيق لا يحسه^(٢) عن غيره من الناس
ما دام يؤمن ويتقى ويحسن في القول والعمل ويبرئ قلبه من الإثم

(١) الملا من قریش : أشرفهم وعليتهم . (٢) لا يحسه : لا يجعله خسيساً دينياً .

وضميرَه من السوء . ويتحدّثون فيما بينهم بأن الحرية والرقّ ، والغنى والفقر ، والقوة والضعف ، أعراضٌ تعرض وتزول ، ليس من شأنها أن تميز بعض الناس من بعض ، ولا أن تسودّ بعضهم على بعض ، ولا أن تحكّم بعضهم في بعض . وإنما يمتاز الناس بالخير والمعروف والتقوى ، ويسود الناس بالسلطان الذى لا يأتهم من مولد ولا من ثراء ، وإنما يأتهم من رضا الناس عنهم وثقة الناس بهم وإيمان الناس لهم . ويحكّم الناس بأمر يأتهم من السماء قد فصل لهم الخير والشر ، وبين لهم العرف والنكر ، وميز لهم الحلال والحرام ، لا بهذه التقاليد التى توارثوها عن آبائهم ، ولا بهذه السنن التى حفظوها عن قديمهم .

بهذا كله كان الرقيق والمستضعفون فى الأرض يتحدّثون إذا لقي بعضهم بعضاً أو خلا بعضهم إلى بعض . وبهذا كله جعل الرقيق والمستضعفون فى الأرض يتسامعون ثم يتداعون ثم يتواصون . وبهذا كله رُوّع الملاء من قريش ذات يوم ، فتار ثأثره ، وفار فآثره ، وأجمع أمره أن يطفىء هذه الجذوة قبل أن ينتشر لها فلا يُسقى ولا يذّر . ونظر التاريخُ ذات يوم إلى مكة فرأى فيها هذه الأحداث الصغار الكبار ، وسمع فيها هذه الأحاديث التى كانت تهمس بها الأفواه وتصيح بها الضمائر والقلوب والنفوس . ورأى التاريخُ فيما رأى ياسراً ذلك الفتى قد تقدمت به وبزوجه السنّ ، وقد مات حليفه أبو حذيفة ، وقد رُزق من سمية ثلاثة أبناء قُتل أحدهم فى خطوب

مجهولة ، وبقى الآخرون يعيشان كما كان أبوهما يعيش .

ويجب أن نسجل أن التاريخ لم يبحث عن ياسر ولا عن بنيه ، وإنما أقبل ذات يوم على مكة ليرى بعض ما يجري فيها من الأحداث ، فلم يكذب يبلغ المسجد حتى رأى أنديّة قریش هائجة مائجة تتحدث عن محمد وعن دعوته وعن تبعه من المستضعفين والرفيق ، وقد تُذكر دار أرقم ابن أبي الأرقم التي اتخذها محمد لنفسه ولأصحابه نادياً ينشر منه دعوته هذه الرائعة المروعة ؛ فتحول التاريخ عن هذه الأنديّة الصاخبة إلى دار ابن أبي الأرقم ليرى محمداً وأصحابه ويسمع منهم . ولم يكذب يبلغ هذه الدار حتى رأى على بابها رجلان : أحدهما أسود طوأل ترنفع قامته في السماء ، والآخر أصهب ربعة^(١) ، وهما يتحاوران : يقول الأسود لصاحبه الأصهب : ما تصنع هنا ؟ فيقول له الأصهب : وأنت ماذا تصنع ؟ فيجيب الأسود : أريد أن أدخل على محمد فأسمع منه وأعلم علمه . فيقول الأصهب : وأنا أيضاً أريد ذلك . ثم يدخل الرجلان فيسمعان ويسلمان . ويعرف التاريخ أن الأسود الطوأل هو عمار بين ياسر ، وأن الأصهب الربعة هو صهيب بن سنان . ومنذ ذلك الوقت يذكر التاريخ ياسراً ذاك الفتى العنسي ، ويتتبع خطوات ابنه عمار .

(١) أصهب : أحمر اللون أو أشقره . والربعة من الرجال : من يكون بين الطول والنقص .

أصبح ياسر ذاهلاً واجماً مشرد اللبّ ، قد أنكر نفسه وأنكرته
 زوجته سمية ؛ فقد تعود أن يفيق من نومه قبل أن تنشر الشمس
 ضوءها على بطحاء مكة وجبالها ، فلا يُريح ولا يستريح ، وإنما
 يضطرب في الدار ذاهباً جائياً كثيراً الحركة موفور النشاط ، يتحدث
 إلى نفسه بصوت مرتفع حتى يوقظ النائم من أهله وولده ، وهم
 ينكرون نشاطه وحديثه في أنفسهم ، وربما أنكروا حركته ونشاطه
 بالسنتهم ، وطلبوا إليه شيئاً من سكون وسكوت ، فكان يعث بهم
 ويسخر منهم ، ويلجّ عليهم بحديثه وحركته ، ويؤنبهم مداعباً لهم
 حتى يصدّهم عن النوم أو يصدّ عنهم النوم .

وكانت زوجته سمية أشدّ أهل الدار ضيقاً بهذه الحركة وإنكاراً
 لهذا النشاط ؛ فلم يكن شيء أحبّ إليها من أن تستأخر في نومها
 ما وسّعها ذلك ، كأنها كانت تتصور ما ينتظرها في الدار من سمل
 ستجد فيه من الجهد ما يضيئها ويشقّ عليها ، فكانت تحب أن
 تُرجى ذلك ما وجدت إلى إرجائه سبيلاً . ولكن الشيخ الثرثار المكثّر
 النشاط لم يكن يكره شيئاً كما كان يكره أن يستيقظ والناس من حوله
 نيام ؛ فلم يكن يستقر له قرار ولا يهدأ له بال حتى يثور أهل الدار

جميعاً من نومهم ويأخذوا معه في حديثه الذى لا ينقضى ، يسمعون له كثيراً ويقولون له قليلاً .

وكانت أحاديث ياسر مختلفة أشد الاختلاف ، ترُوع بغيراتها وطرافتها وإثارتها للشوق إلى الاستزادة والرغبة فى الاستطلاع . فقد كان ياسر لا ينفك يروى غرائب الأخبار وطرائف الأحداث عن موطنه ذلك البعيد فى تهامة اليمن ، وعن أسفاره تلك الكثيرة فى تجارة مخزوم إلى الشام حيناً وإلى العراق حيناً وإلى ما وراء الشام والعراق أحياناً .

ولم يكن أحد أعلم من ياسر بمناقب قريش ومثالبها (١) . ولم يكن أحد أشد منه تعلقاً بالتحدث عن سادة قريش وقادتها ، يثنى عليهم ، ولا يعفيهم من نقده اللاذع الذى كان يصادف هوياً فى نفوس السامعين له من أهله وبنيه . وأى شيء أحب إلى دهماء الناس من التحدث عن السادة والقادة بما يسُرّ وما يسوء ، وبما يُرضى وما يُسخط ! وكان ياسر إذا أخذ فى الحديث عن قريش أمعن فيه ، واستهوى أفئدة سامعيه .

واستيقنت سمية أنه لن يخرج من الدار إلا حين يرتفع الضحى وتوشك الشمس أن تزول . ولكنه أفاق من نومه ذلك اليوم ، فلم يُثر من مضجعه ، ولم يتحرك لسانه فى فمه ، وإنما ظل مستلقياً مكانه لا ينشط ولا يقول ، ولا يدعو غيره إلى نشاط أو قول .

(١) المناقب : الفاخر . والمثالب : المعاييب .

وأخذت سمية حظها من نوم الصباح كما لم تتعود أن تأخذه قط ،
ولكنها مع ذلك أنكرت هدوء هذا الذى لم يتعود هدوءاً ، وصمتت
هذا الذى لم يألف صمتاً . فتقيلُ عليه وقد تكلف وجهها الابتسام
والرضا ، وأضمر قلبها العبوس والخوف ، فتسأله ما خطبُه ؟ وهل
يجد شيئاً يكرهه ؟ فيجيبها بصوت خافت : ليس بى بأس ،
ولستُ أجد ما أكره . قالت سمية : فمالك لا تملأ الدار علينا
ضحيجاً وعجيجاً ؟ قال ياسرٌ وقد جعل صوته يمتلىء ويقوى شيئاً
فشيئاً : ويحك يا سمية ؛ كيف السبيل إلى إرضائك ؟ إنْ أنشطتُ
قلت : هلاً خليت بينى وبين النوم ، وإنْ أسكنُ قلت : هلاً
ملأت الدار علينا ضحيجاً وعجيجاً ! أما إني لم أهدأ حباً فى الهدوء ،
ولم أسكن إيثاراً للسكون ، وإنما رأيتُ رؤيا روعتني عن النشاط
والقول . قالت سمية وقد ثاب الأمنُ إلى قلبها وصرح وجهها الأسود
المتجدد عن رضا لا تكلف فيه — قالت وهى متضحكة : فهلاً
رأيت من آخر كل ليلة رؤيا تُروّعك وتشغلك عن النشاط والقول !
ذلك أجدرُ أن يتيح لى من الراحة والدعة ما أنا فى حاجة إليه .
قال ياسر وقد همّ ثغره أن يتسم ووجهه أن يشرق ، ولكن الرّوع
لم يلبث أن رده إلى الجِدِّ والصرامة — قال : ويحك يا سمية ! إنها
رؤيا ليست كالرؤى ، وما أرى إلا أن لها شأنًا ؛ فما أكثر ما عرضتُ
لى الأحلامُ ، وما أكثر ما انصرفتُ عنى حين أفيق ؛ ولكن هذه
الرؤيا قد تركت فى قلبى وعقلى وأمام عيني صورة مُلحّة لا تريد أن

تريم . قالت : فقُصَّ رؤياك ، لعل حديثك عنها أن يُريحك منها .
قال ياسر : هيئات ! ثم استوى جالساً في بطنه وأخذ يقصّ رؤياه
مستأنياً . ولم يكدّ يمضى في حديثه قليلاً حتى رُوِّعت زوجته ،
وهمت أن تكفه عن الحديث ، لولا بقية من شجاعة وفضل من
حياء . قال ياسر : لن أقصّ عليك رؤيا ، ولكني سأصِف لك
صورة رأيها نائماً وما زلت أراها يقظان : واد ليس بالمسرف في
السعة ولا بالمسرف في الضيق ، وإنما هو وسطٌ بين ذلك ، يأخذ
جانيبه جبلان عظيمان يرقى إليهما الطرف ولكنّه لا يبلغ أعلاههما .
وقد تشقّق الجبلان عن فجوات عميقة أراها ولا أحصيها ، والنار تُخرج
من هذه الفجوات يسعى بعضها إلى بعض ، حتى تلتقي وحتى يسيل
بها الوادي كما يسيل بالماء . وفي أقصى هذا الوادي من أمامي مُروج
خضر تجرى فيها مياه عذّاب لا تبلغها هذه النار ، وإنما تقف
قبل أن تنتهى إليها ، وأنت قائمة في هذه المروج الخضر قد رُدّ
عليك شبابك وأشرق وجهك حتى كأنه الشمس ، وأنت تبسمين
لى وتدعيني باللحظ واللفظ ، وتُشيرين إلىّ بالبنان . ومن ورائي
عمار يحثني على أن أقتحم النار ، ويقول في صوت يشيع فيه الحنان :
أقيدم يا أبت ، فليس عليك بأس ، إنما هي لفحة أول لفحات
ومن ورائها هذه الرياض الخضر ! وسمية قد رُدّ عليها شبابها ،
وشبابك ينتظرك إلى جانبها ليُردّ عليك . وأنا أسمع دعاءك ، فأهم
أن أقتحم النار ، ولكن لفحها يوقظني . ثم يضرب الشيخ جبهته بيده

صائحاً : ويلاه ! إني لأجد مس النار ؛ قالت سميّة وقد أقبلت عليه مرتاعة ملتاعة : وَيَحْكْ ! لا بأس عليك ! قم فأصِبْ شيئاً من طعام ، ثم اخرجْ فاقصُصْ رؤياك هذه المروعة على بعض كهاننا لعلهم أن يجدوا لها تأويلاً .

ولم يُقبل المساء من ذلك اليوم حتى كانت رؤيا ياسر قد عبرت نفسها ، وحتى وجد ياسر مس النار .

٦

أقبل ياسر يسعى إلى المسجد ، حتى إذا بلغ نادى بنى مخزوم ألقى التحية وجلس ، ولكنه لاحظ أن وجه القوم لم تهش له ، وأن أصواتهم لم ترتفع بالسلام عليه ، وإنما ردّ بعضهم عليه تحية فاترة ، ومضى بعضهم في حديثه كأنه لم يُلقَ إلى هذا الطارئ بالاً . فأسرّ ياسر في نفسه بعض الموجدّة ، ولكنه لم يطيل عندها الوقوف ؛ فهو يعلم أن في مخزوم صلفاً وألفة وكبرياء . ولولا وفاؤه بخلفه لمكان أبي حذيفة من قلبه ، لتحوّل عن مخزوم إلى حيٍّ آخر من أحياء قریش . ولكنه وفى لأبي حذيفة بعد موته كما وفى له أثناء حياته . ولم يكن له من هذا الوفاء بدٌّ ؛ فأبو حذيفة قد حفظه بعد ضيعة ، وأمنه من خوف ، وزوجه سميّة أحبّ الناس إليه وآثرهم عنده ،

وأعْتق له ولده منها قبل أن يولدوا ، ثم لم يمِت حتى رَدَّ إلى سمية حريتها ، فأصبحت دارُ ياسر دارَ حرية كاملة ، بعد أن كانت داراً نصفها حرٌّ ونصفها رقيق .

وكان ياسر قد أقبل على نادى مخزوم وفي نفسه أن يقص عليهم رؤياه تلك التى أحمته وروّعته ، يُطرفهم بها من جهة ، ويلتمس عندهم لها تأويلاً من جهة أخرى ، فلما رأى منهم الفتور والإعراض أمسك لسانه فى فمه ، وجلس صامتاً لا يقول شيئاً . وكانت مخزوم قد عودت ياسراً ألا تراه فى ناد من أنديتها أو دار من دورها إلا داعبته وأثارت نشاطه للحديث . ولكنها تلقته فى هذا الضحى فاترة عنه تكاد تنكره ، لا تسأله حديثاً ولا تسوق إليه حديثاً . ولولا أنه تعود أن يستأنى بهؤلاء المستكبرين حتى يثوبوا إليه فيعبث بكبريائهم ويسمعهم ما لم يكونوا يحبون أن يسمعوا ، لا نصرف عنهم إلى ناد آخر من أندية قريش . ولكنه أقام صامتاً مستأنياً يدير فى نفسه الانتقام من هذا الفتور . على أنه لم ينتظر طويلاً قبل أن يُساق إليه الحديث ؛ فهذا عمرو بن هشام يسأله فجأة : ما أخرَكَ اليوم عنا يا ياسر ؟ قال ياسر مداعباً : فقد كنتُ فى حاجة إلى إننى (١) يا أبا الحكم ؟ قال عمرو بن هشام وهو يكتُم الغيظ فى نفسه : أجل ، كنتُ فى حاجة إليك لأسألك عن شئ عُصِّى على من أمرك . قال ياسر : وما ذاك ؟ قال عمرو بن هشام : ذاك أنى لم أرك قط تُقَرَّب

(١) الانى : التأخر والإبطاء ، أى فى حاجة إلى أن أتأخر وأبطئ .

إلى آهتنا ، ولم أسمعك قط تذكرها بخير . قال ياسر متضاحكاً :
 فهل سمعتني قط أذكر آهتكم بسوء ؟ وهل رأيتني قط آتى من الأمر
 ما يؤذيها ؟ قال عمرو بن هشام : فهمي إذن آهتنا نحن ، وليست منك
 ولست منها في شيء ! قال ياسر : وما تريد إلى ذاك ؟ قال عمرو
 بن هشام وقد ظهر الغضب في وجهه وفي صوته جميعاً : أريد أن
 أعرف مَنْ هو معنا وَمَنْ هو علينا ؛ فقد آن لكل من أقام بمكة
 أن يصرح عن ذات نفسه وأن يبدى دخيلة ضميره . ولقد عفونا
 لأحلافنا عن كثير ، ولكننا لن نعفو لهم منذ الآن عن شيء . قال
 ياسر : أمسيك عليك نفسك أبا الحكم ؛ فإنك لم تر مني ولم ير
 قومك مني سوءاً منذ حلفتُ عمك أبا حذيفة على أن أكون سليماً
 لمن سالمته وحرماً على من حاربته . وإنى لأسمع الآن منك حديثاً
 لم أسمع مثله منذ أويت إلى حرّمكم هذا . قال عمرو بن هشام وقد
 اندفع في ضحك يصور الغيظ أكثر مما يصور الرضا : فأنت حربٌ
 على ابنك عمّار إذن منذ اليوم ؟ قال ياسر : أبين أبا الحكم ؛ فإنني
 لا أفهم عنك منذ اليوم شيئاً . قال عمرو بن هشام : ألم تعلم أن
 ابنك قد صَبَأَ أمس وأمن لحمد وأصحابه ؟ هنالك صَعِقَ ياسر ،
 فانعقد لسانه واصفرَّ وجهه وجعل جبينه يتفصد عرقاً^(١) . وهنالك
 جعل سادة مخزوم يتقارضون نظرات سراعاً فيها من العَجَبِ أكثر
 مما فيها من السؤال . وهم عمرو بن هشام أن يتكلم ، فقال له عمه الوليد

(١) يتفصد عرقاً : يسيل عرقاً .

ابن المغيرة : حَسْبُكَ يا بن أخى ! ارفُقْ بهذا الشيخ فإنك قد ترى ما نزل به ، وليس عليه من جرائر ابنه شيء ؛ فقد جاوز ابنه سن الأربعين .

وجعل السادة من مخزوم يعيدون على عمرو بن هشام مقالة الوليد . وجعل رُشْدُ ياسر يثوب إليه فى أثناء ذلك قليلا قليلا . فلما آتس من القوم صمتاً قال لعمرو بن هشام : بئس ما لقيت به حليفك يا أبا الحكم ! إني لم أرَ عماراً أَمَسَ ، ولم أرَ اليوم ، ولم أعرف ما كان من أمره منذ فارقتَه . وإنك لتضع العُنْفَ فى غير موضعه وتلوم غير ملوم . فهلاً عَنَفْتُ بالأرقم بن أبى الأرقم ، وهو مثلك سيّد من سادات مخزوم ، وهو قد صبا قبل أن يصبو عمار إن كان عمار قد صبا ، وهو قد جعل داره نادياً لمحمد يلقى فيها أصحابه وينشر منها دعوته ويذكر فيها ألفتكم بما تكرهون . ولكنك خِفْتُ الأرقم بن أبى الأرقم ؛ لأن بنى أبيه يقومون دونه إن أردته بمكرهه ، فأما حليف عمك أبى حذيفة فليس هناك ؛ فلو قد كان أبو حذيفة حياً لفكرت وقدّرت قبل أن تلقانى هذا اللقاء . قال ذلك ونهض متاقلاً حزيناً منكسر النفس ؛ فضى إلى داره وترك بنى مخزوم يتلاومون .

٧

ولم يكد يبلغ داره ويبلغ من بابها حتى أنكر من الدار ومن
أهلها كل شيء ؛ فقد رأى زوجه مُسمّية فرحةً مرحّةً ، قد أشرق
وجهها على رغم ظلمته ، وابتسم ثغرها وهي تلقاه مبهجة النفس
منبسطة الأسارير . فلا يكاد يدنو منها حتى تثب إليه وتتعلق به
تُلقي إليه في صوت مبهج تشيع فيه الغبطة وتفيض منه البهجة :
أبشر ياسر فقد جاءنا عمار بخير الدنيا والآخرة ! قال ياسر دهشاً :
الآخرة ! ما الآخرة ؟ ماذا تقولين ؟ إني لأعيش عيشة منكرة منذ
اليوم ، تُروّعني أحلام الليل ، ولا أفهم ما يقال لي أثناء النهار .
قال عمار : أبشر يا أبت ، فقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة . قال
ياسر : أمفصّح أنت عما تريد ؟ ألم أحدث أنك قد صبوت !
ويلك ! ماذا جنيت على أبويك ؟ ! قال عمار وهو يتضحك
رفيقاً بأبيه : بل قل : ماذا جنيت لأبويك ! فقد جنيت لهما
خير الدنيا والآخرة . لقد حدثك من حدثك بأني صبوت ، فإني
لم أصب ، وإنما أسلمت لله الذى خلق السموات والأرض والشمس
والقمر والنجوم ، وأرسل إلينا محمداً يهديننا سبيلنا ويُبصّرنا بأمرنا
ويُخرجنا من الظلمات إلى النور ، ومن الجهالة والضلالة والغى إلى

الحكمة والهدى والرشد ، وَيُبَشِّرُ مَنْ آمَنَ وَاتَّقَى بِأَن لَهُ رِضَا اللَّهِ عَنْهُ مَاعَاشٌ ، وبأن له رضا الله عنه ومثوبته له بعد أن يموت ، وَيُنْذِرُ مَنْ كَذَّبَ وَعَصَى بِأَن عَلَيْهِ لعنةَ اللَّهِ حَيًّا ، وبأن له نارَ جهنم يَصْلَاهَا خَالِدًا فِيهَا بعد أن يموت .

وسمع الشيخ هذا كله مصغياً له ، وكأن كلمات ابنه كانت تنفذ إلى قلبه دون أن تمر بأذنيه ، وقد جعل وجهه يُشرق شيئاً فشيئاً حتى استحال كله نوراً ، وجعلت قوته تذهب عنه شيئاً فشيئاً حتى تهالكَ وكاد ينهار لولا أن أسرع إليه ابنه وامراته فأسنداه وأجلساه وأقبلا عليه يرفقان به ويتلطّفان له ، يمسح عمار رأسه وتُمرّ سمية يدها على وجهه ، والشيخ واجم لا يتحرّك لمانه في فمه إلا بهذه الكلمات : فهو ذاك إذن ! فهو ذاك إذن ! قال عمار في صوت حلو : ماذا تقول يا أبت ؟ قال ياسر وقد احتبست في حلقه عبّرةٌ لم يَبِنْ صوته منها إلا بعد جهد ، وقد جعلت عيناه تَسُحَّان على وجهه دموعاً غزارا — قال ياسر : هو ذاك إذن ! لقد أذكرتني يا بني حديثاً كان بيني وبين أبي حذيفة حين أَلَمْتُ بمكة ولم أكُ أَجَاوِز العشرين . أراد أن يُخالفني عند آلهة فأبيت عليه ، فلما سألتني عن ذلك ذكرت له أني لو كنت مَرْخِذًا إلهًا لعبدتُ البحرَ الذي يُخيفني ، أو الشمس التي تضيء لي ، أو النجوم التي تهديني ، ولكن شيئاً من ذلك لا يبلغ قلبي ولا يتحدث إلى نفسي ولا يثير فيها رَغْبًا ولا رَهْبًا . فقد أنباك محمد إذن بأن لهذه الآيات كلها

خالقاً فطَرَهَا ودبَّرَ أمرها ، هو ذاك إذن ! ثم أطرق الشيخ إطراقة طويلة ، ثم رفع رأسه والدموع تنهل من عينيه غِزاراً وهو يقول : هو ذاك إذن ! ومن أجل هذا آثرتُ بعد الدار على قربها ، واخترتُ أن أكون حليفاً لبني مخزوم على أن أكون عزيزاً في بني عَنَس ، وتركت أخوَيَّ يعودان إلى تهامة ، وأقمت أنا في هذه البطحاء . ثم يتحول إلى سمية فيمسح رأسها بيده وهو يقول : وكان حبك هو الذي دعاني إلى انتظار هذه الساعة . ثم يعود إلى إطراقه ، ثم يرفع رأسه ، وقد كَفَّتْ عيناه عن البكاء وجعلت قَطَرَاتٌ من دمه تتلألأ في لحيته ، وهو يقول لابنه عمار : متى تَصْصَحْبُنَا إلى محمد لنسمع منه كلمة الحق ؟ قال عمار : هلمَّ الآن إن شئنا .

وأقبل المساء من ذلك اليوم وإذا أبو جهل عمرو بن هشام قد أقبل في فتية من أحرار مخزوم ورقيقها ، فوضعوا عماراً وأبويه في الحديد ، وأشعلوا في دار ياسر النار . يقول ياسر لسمية والقوم يَعْثِلُونَهُمْ^(١) إلى حيث يحسون : أنظري سمية ! هذا أول النار التي عرضتها على الأحلام . فيقول عمار : ومن ورائها جنةٌ فيها نعيمٌ ورضوان للذين صدقوا محمداً واستجابوا لما دعاهم إليه .

(١) عتله : جره جراً عنيفاً وجذبه فجعله .

واجتمع الملاء من قريش في المسجد حين ارتفع الضحى من
 الغد ، فلم يتحدّثوا في تجارة ولا بيع ، وإنما تحدّثوا في هذا الحدث
 العظيم الذى ابتكره فتي مخزوم في هذا البلد الآمن الذى ليس لأهله
 عهد بتحريق الدور على أهلها ، ووضع الرجال والنساء في الحديد
 وإذاقتهم ألواناً من العذاب ، مع أنهم لم يقتلوا ولم يسرقوا ولم يقرّفوا
 من الآثام والذنوب ما تعودت قريش أن تنكره وتعاقب عليه . يقول
 الوليد بن المغيرة لأبى جهل عمرو بن هشام : وَيَحْكُ يَا ابْنِ أُخَى !
 لقد أحدثت في هذا الحرم الآمن ما ليس لقريش به عهد ؛ لم
 تؤامرنا فيما صنعت ، ولم تصدّر عن ذوى أحلامنا ولا عن أولى الرأى
 من قومك ، وإنما اتبعت هواك ، واستخفك الغرور ، وتبعك
 السفهاء من فتياننا والمحّمقون من رقيقنا . وإني لأخشى أن يكون لهذا
 الحدث الذى أحدثته ما بعده ؛ فإن لهذا الحرم في نفوس العرب
 مكانته : يأمنون فيه من خوف ، ويطعمون فيه من جوع ، ويلتمسون
 فيه ما لا يجدون في غيره من الدعة والسعة والطّمأنينة والرخاء . فكيف
 إذا تسلمعت العرب بأن الذين يأوون إلى هذا الحرم ويستظلون بظل
 هذا البيت لا يجدون دعة ولا سعة ولا ينعمون بأمن ولا عافية ، وإنما

تُحرق عليهم دورهم ويوضعون في الحديد ويسامون سوء العذاب !
وكيف إذا تسامعت العرب بأن فتيان قریش وسفهاءها قد بَغَوْا وطغَوْا
وأصبحوا لا يحفلون بالملأ ولا بدوى الأحلام والرأى من قومهم ،
ولنما يركبون رعوسهم ويستجيبون لشهواتهم ويتبعون أهواءهم لا يحفظون
للجار عهداً ولا يرعون للآجى حرمة ! أمّا إني مشير على مخزوم
بأن تُطلق هؤلاء الأسارى وبأن تُنصفهم منك ومن أصحابك . قال
أبو جهل عمرو بن هشام وقد انتفخ سحره^(١) ووَمِ أنفه وصعد الدم
إلى وجهه وجعلت عيناه تقدحان شرراً : هيات ، لا واللات
والعزى لا تصلون إلى هؤلاء الأسارى وقائمُ هذا السيف في هذه اليد .
وإني لأعلم أنى أحدثت في هذا الحرم ما لا عهد لأهله به ، ولكنك
تعلم يا عم أن محمداً قد سبقني فأحدث في هذا الحرم ما لا عهد
لأهله به . قال الوليد في رفق : وَيَحْكُ يا ابن أخى ! فإن محمداً
لم يُحرق داراً ولم يعنف بأحد ولم يضع أحدًا في الحديد . قال
أبو جهل : بل هو فعل شرّاً من ذلك ، إنه أفسد علينا الرقيق ،
وأفسد علينا الدهماء ، يُغريهم بأهتنا ، ثم لا يكفيه ذلك فيغريهم
بأموالنا ومرافقتنا ويطمعهم في مراتبنا ومنازلنا التي توارثناها ، ثم لم
نُخلد إليها ، وإنما نبذل في الاحتفاظ بها ما نملك من قوة وجهد .
ألم تر إلى هؤلاء الرقيق الذين اتبعوا محمداً يزعمون أنهم رجال أمثالنا ،
وأن لهم مثل ما لنا من الحق ، وأن عليهم مثل ما علينا من التبعات ،

(١) السحر : الرثة . وانتفاح السحر كناية عن مجاوزة القدر .

وأكرمُ منا عند الله منزلةً وأرفعُ منا عنده مكانةً ؛ لأنهم يُخلصون
له قلوبهم ويؤمنون به وحده لا يشركون معه اللات والعزى ومناة
وهبسل ؛ فهم أولو الرأى والحلم ، ونحن السفهاء والحمقون ! ويحك
يا غم ! إنكم إن تركوا محمداً وأصحابه ينشرون دعوتهم هذه فى أرض
مكة لا تريدوا على أن تجعلوا عاليها سافلها ، وعلى أن تُضيعوا ما
أورثكم آبائكم من العِزِّ والمجد ومن الثراء والسلطان . وأيُّهما شرٌّ : أن
تسامع العرب بأن الحلماء من أهل مكة يزجرون السفهاء ويردُّونهم
إلى القصد ، أم أن تسامع العرب بأن الرقيق من أهل مكة قد
أصبحوا سادة ، وبأن السادة قد أصبحوا رقيقاً ، وبأن الآلهة التى
يحججون إليها من أقصى الأرض قد أصبحت هزواً وسخرية ؟ !
لا والله لا تصلون إلى هؤلاء الأسارى وقائمٌ هذا السيف فى هذه
اليد ! قال أمية بن خلف : وصَلَّتْكَ رَحِمٌ يا أبا الحكم ! والله لقد
سعيت فأحسنست السعى أمس ، ولقد قلت فأحسنست القول اليوم .
وإن أمر محمد وأصحابه لشوكةٌ فى جنب هذا الحى من قريش ،
ولن يستقيم لهذا الحى أمره حتى تُنزعَ من جنبه هذه الشوكة . ولو
قد بلا عمك من رقيقه وأحلافه مثل ما بلوت أنا من بعض أتباعى
لما اشتطَّ عليك فى القول ، ولما ألحَّ عليك باليوم منذ اليوم . وإن
الذى صنعت بأسارك من أحلاف مخزوم ورقيقها أمس قد صنعتُ
مثلها بقوم من أحلاف جُحَح ورقيقها . ولا والله يا معشر قريش
ما لكم من أمركم خيرة ، وإنما هى الحرب المنكرة قد حُمِلتْ إليكم

وَنُصِبْتُ عَلَيْكُمْ فِي عُقْرِ دَارِكُمْ ؛ فَإِنْ أُرِدْتُمْ أَنْ يُصْبِحَ مَا لَكُمْ تَهْبِئاً
لِعَبِيدِكُمْ وَإِمَائِكُمْ وَالطَّائِرِينَ عَلَيْكُمْ مِنْ أَوْشَابِ الْعَرَبِ وَأَخْلَاطِ النَّاسِ ،
وإن أُرِدْتُمْ أَنْ يَفْقَدَ هَذَا الْبَيْتَ حُرْمَتَهُ ، وَتَفْقَدَ هَذِهِ الْآلِهَةُ ذِكْرَهَا
الطَّائِرَ فِي الْآفَاقِ ، وَتَصُدَّ الْعَرَبُ عَنِ الْحِجِّ إِلَيْكُمْ وَالسِّيَاحِ بِكُمْ ،
وَتُصْبِحُوا أَحْدُوثَةً فِي الْأَفْوَاحِ وَتَمَرّاً لِلْسَّامِرِينَ ، فَخَلُّوا بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ
وَمَا يَرِيدُونَ . وَإِنْ أُرِدْتُمْ أَنْ تَمْسُكُوا عَلَيْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ، وَتَحْفَظُوا عَلَى
الْآلِهَةِ سُلْطَانَهَا ، وَتَكْفُلُوا لِهَذَا الْحَرَمِ ذِكْرَهُ بَيْنَ النَّاسِ ، فَشُدُّوا عَلَى
أَيْدِيكُمْ ، وَرُدُّوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَضْلَ أَحْلَامِكُمْ ، وَاسْتَقْبَلُوا أَمْرَكُمْ
بِالْحَزْمِ وَالْجِدَّةِ ، وَكُفُّوا هَؤُلَاءِ السَّفَهَاءَ عَمَّا أَمَعُوا فِيهِ مِنَ الْفَسَادِ .
قَالَ أَبُو سَفْيَانَ صَخْرُ بْنُ حَرْبٍ : أَمَّا إِنِّي لَا أَمْنُ أَنْ أَمْضِيَ بِتِجَارَتِكُمْ
غَدَاً إِلَى الشَّامِ أَوْ إِلَى الْيَمَنِ ، وَأَنْ أَعُودَ إِلَى هَذَا الْبَلَدِ بَعْدَ أَشْهُرٍ فَأَرَى
أَصْحَابَ الْأَمْوَالِ وَقَدْ شَرَّدُوا وَأَزِيلُوا عَنْ أَمَاكِنِهِمْ . يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ
إِنَّ التِّجَارَةَ خَيْرٌ ، وَإِنْ فِيهَا لِرَبْحاً وَسِعَةٌ ، وَلَكِنَّ التِّجَارَةَ لَيْسَتْ مُرَبِّحَةً
إِذَا لَمْ يُحْمَ ظَهْرُهَا . وَيَحْكُمُ ! إِنَّكُمْ تَصَانَعُونَ الْعَرَبَ لِتَحْمُوا طَرِيقَ
تِجَارَتِكُمْ إِلَى الشَّامِ وَالْيَمَنِ ، فَكَيْفَ إِذَا عَجَزْتُمْ عَنْ حِمَايَةِ تِجَارَتِكُمْ فِي
مُسْتَقَرِّهَا ! أَمَا إِنِّي لَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ بِتِجَارَتِكُمْ حَتَّى أَعْلَمَ أَنَّكُمْ
سَتَحْمُونَ ظَهْرِي ، وَأَنْي سَأَعُودُ إِلَى مَكَّةَ فَأَرَى أَهْلِي كَمَا تَرَكْتُمْهُمْ آمِنِينَ
وَادِعِينَ لَمْ يُرْزَعُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَلَا فِي أَمْوَالِهِمْ . قَالَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمَغِيرَةِ
مَتَضَاحِكاً : وَيَحْكُمُ ! كَأَنَّمَا أَطْرْتُ بِمَا قُلْتَ لِابْنِ أَخِي طَائِراً كَانَ
فِي صَدْرِكُمْ . هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ قَدْ أَفْسَدَ الْخَوْفُ عَلَيْكُمْ أَمْرَكُمْ وَأَخْرَجَكُمْ

الذُّعْرُ عن أطواركم ، فأكبرتم من أمر هذه العصابة صغيراً ، وعظمت من شأنها حقيراً . إنهم ما علمت لودعون ، يتحدثون بأحاديثهم فيما بينهم ، لم يبادوكم بشر ، ولم يرزءوكم في مالكم قليلاً ولا كثيراً . قال أبو سفيان : فتريد أن ننظرهم^(١) حتى يفعلوا ؟ قال أبو جهل : فإني أريد أن أستأصل هذا الشر قبل أن يستفحل . إمض أبا سفيان بتجارتنا حيث شئت ؛ فإن عليّ أن أحمي ظهرك وأن أحفظ لك مكة كما تحب أن تكون . قال عتبة بن ربيعة : يا معشر قريش ، كلكم قال فأحسن القول . إنا والله ما نرضى أن تُسَفّه أعلامنا ولا أن تعاب آلهتنا ولا أن تتعرض أموالنا لشر ، ولكن لنا في القصد والعافية ما يغنينا عن العنف والبطش ؛ فلنؤدّب سفهاء قومنا بالأناة واللين ، ولنأخذ الرقيق والأحلاف بالشدة والعنف ؛ فإننا إن نفعل ذلك نُقَرِّر السلم في ذات بيننا ، ونجعل من الرقيق والأحلاف مثلاً وعبرة ونكالا . قال أبو جهل : وهل فعلتُ غير هذا ! إني واللوات والعزى لو أطعت نفسي لقتلت الأرقم بن أبي الأرقم ، ولحرقت داره على من فيها ، ولوجدت في ذلك شفاء لنفسي أىّ شفاء ؛ ولكنى أؤثر العافية في مخزوم ، وأتخذ من هؤلاء الأخلاط والمستضعفين نكالا للصائبين من قريش . قال الوليد بن المغيرة وهو ينهض مشتاقلاً ويضحك ساخراً : بشس والله ما تصنع يا ابن أختي ؛ إنما يقيس القوى قوته إلى الأضراب والنظراء ، فأما أن يقيسها إلى الأحلاف

(١) ننظرهم : نعلمهم .

والرقيق والمستضعفين من الناس فهذا والله الجبن والخرق ، ولكن لا رأى لمن لا يطاع .

وتفرقت قریش فذهب أكثر الملائ إلى دورهم إلا أبا جهل ، فإنه ذهب في عصابة من الفتية والرقيق فاستخرج أساره من محبسهم ذاك الذي أنفقوا فيه الليل ، ومضى يدفعهم أمامه يتعجل خطوهم . وأننى للمقيّد أن يسرع الخطو ؛ ولكن أبا جهل وأصحابه كانوا يُخزّونهم بالرماح والخنجر وخزاً^(١) يؤذى ويُدْمى ويشقّ ، ولكنه لا يبلغ الأنفس ، وربما ألهبوهم ضرباً بالسياط ، وربما جذبوا حية ياسر وعمار وشعر سمية وهم يتضحكون ويتصايحون ، والناس ينثالون^(٢) عليهم من كل بيت وينضمون إليهم من كل وجه . وكأنّ الأسارى قد تحدّثت نفوسهم وسكتت ألسنتهم ، فأجمعوا ألا يرفعوا صوتهم بشكاة وألا يُظهروا ألماً ولا ضجراً .

ومضوا كذلك ، حتى إذا بلغوا مكاناً في البطحاء وقف أبو جهل ووقف الناس معه ، ثم تقدّم حتى دنا من ياسر فقال له ساخراً منه : أباقي أنت على حلفك للخزوم كما حدّثتنا أمس ؟ قال ياسر : فإنك قد أخرجتنا من هذا الحلف حين بغيت علينا ، فألقيت عنا عبثه ووزره . قال أبو جهل : فقد برئت من حلفنا إذن ؟ قال ياسر : كما أبرأ من الشر والنكسر وما يُخزى الرجل الكريم . ولم يمهله

(١) الخز : الطعن بالرمح لا يكون نافذاً .

(٢) يقبلون بكثرة متتابعين .

أبو جهل وإنما ضرب وجهه حتى أدماه ، وضرب القوم في وجه عمار
وسمية حتى أدمَوْهما . ثم تقدّم ^(١) أبو جهل إلى أصحابه أن يطرحوا
هؤلاء الأسارى أرضاً ففعلوا . ثم تقدّم إليهم أن يأخذوهم بمكاوي
النار في جنوبهم وصدورهم ففعلوا . ثم تقدّم إليهم أن يضعوا على
صدورهم الحجارة الثقيلة ففعلوا . ثم تقدّم إليهم أن يصبوا على وجوههم
قرب الماء ففعلوا ، وأبو جهل ينتظر متحرق النفس أن يسمع من
أحدهم صيحة أو أنه أو شكاة . ولكن نفوس الأسارى قد تحدث
بعضها إلى بعض وفهم بعضها عن بعض ، ف عقدوا ألسنتهم وعمروا
قلوبهم بذكر الله ، وخبأوا بين القوم وبين أجسامهم يصنعون بها
ما يريدون . وعبث أبو جهل وأصحابه بأجسام هؤلاء الثلاثة حتى
ملوا العبث وضاقوا به ، ففترقوا عنهم بعد أن وكّلوا بهم حراساً يحفظونهم
على حالهم تلك حتى يعودوا إليهم حين تخرج الشمس إلى الغروب .

٩

قال حرب بن أمية لعبد الله بن جُدعان : ما رأيت كغلامك
الرومي هذا ذكاء قلب ونفاذ بصيرة وبراعة في التجارة ومهارة في
تشهير المال . قال عبد الله بن جُدعان . أمّا إذ قلت هذا فأني

(١) تقدم إليه أن يفعل كذا : أمره به .

لا أدري أعربي هو سبته الروم صبيّاً حين أغارت على أرض الفرس
كما يقول ، أم روميّ هو سبته العرب حين أغارت مع الفرس على
أرض الروم كما يقول الكلبيون الذين باعوه لى عامٍ أوّلَ في الشام .
قال حرب بن أمية : إنّ فيه حمرة لا تعرفها العرب ، وإنّ لسانه
يرتضح لهجة رومية طالما سمعت مثلها في كثير من أهل الشام .
فليكن عريباً أو ليكن روميّاً فليس لذلك شيء من الخطر ، ولكني
لم أر مثله قط ذكاء قاب ونفاذ بصيرة وحسن نظر في التجارة وتثمير
المال . لقد رأيته في رحلتنا تلك إلى اليمن وحين عبرنا البحر إلى بلاد
الحبشة شيطاناً من الجن يتنسم^(١) مصادر الربح وموارد الكسب ،
ويتبشنا غير مكذب بأننا إن ذهبنا إلى هذا الوجه أو أقمنا في هذه
القرية بعنا كأحسن ما يكون البيع ، وشرينا كأحسن ما يكون الشراء .
ولست أدري كيف تنسم ربح الربح في بلاد النجاشي ، فاتصل
برجال أمثاله لا يحسنون لغتنا ولكنهم يتعاطون فيما بينهم رطانة رومية ،
فباعهم كل ما كان معنا ، واشترى منهم ما لم نكن نطمع في شرائه
ولا نقدر على حمله ، واحتال حتى أعادنا إلى مكة في السفن التي
تمخر البحر لا على ظهور الإبل التي تسبح في البر . وأشد من ذلك
غربة وأدنى من ذلك إلى العجب أنه ألقى في روع أولئك الناس
أنهم يستطيعون إن شاءوا أن يرسلوا رسلاً منهم يحملون ما يحتاجون
إليه من المال ليشتروا منا إذا بلغنا أرضنا ما يملئون به سفنهم حتى

(١) تنسم الشيء : تشمه ليعرف مصدره .

لا تعود إلى مستقرها فارغة ؛ فأغنانا في موسم واحد عن رحلتين ،
بل عن أكثر من رحلتين . قال عبد الله بن جُدعان : إنه ما علمتُ
لغلامٌ "صنع" ^(١) ميمون النقية ، ولقد استكرهت على شرائه ، ولكنى
لم أر منه إلا خيراً .

وخلا عبد الله بن جُدعان مساء ذلك اليوم إلى غلامه ذاك
الرومى الذى سبته العرب ، أو العربى الذى سبته الروم ، فقال له :
لقد أحسنت البلاء يا صُهيبي فى رحلتك هذه إلى اليمن وأرض الحبشة ،
ولولم يُثن عليك حرب بن أمية لأثنى عليك هذا المال الكثير الذى
رجعت به إلى . فهل كان لك بالتجارة من عهد ؟ قال صُهيبي :
هيات ! ما أعلم أنى بعت أو اشتريت قبل رحلتى هذه إلا ما يبيع
الناس ويشتررون من حاجتهم التى تصلح أمرهم فى كل يوم . قال
عبد الله بن جدعان : فهى الفطرة إذن ؟ قال صُهيبي : هو ذاك .
وأطرق عبد الله بن جدعان ساعة ، وهم صُهيبي أن ينصرف ، ولكن
سيده استبقاه بالإشارة ، فأقام ينتظر أن يرفع سيده إليه رأسه وأن
يصدر إليه أمره . وطال إطراق السيد حتى ملّ الغلام أو كاد .
ولكن عبد الله بن جُدعان يرفع رأسه وييسم للغلام ويقول فى تحفظ
وهذوء : أضائق أنت بالرق يا صُهيبي ؟ قال صُهيبي : ومن ذاك
الذى لا يضيق بالرق ولا يتمنى أن يكون حرّاً ! قال عبد الله بن
جدعان : فإنى أريد أن أردّ عليك حرّيتك ، وأن أملكك أمر

(١) غلام صنع : ماهر حاذق .

نفسك ، ولكن بعد أن أعرضك لمحنة ذات خطر . قال صهيب :
 فأُمرت عليك حرّيتك هذه التي تريد أن تردّها عليّ ؛ فإن الحرية
 لا تباع ولا تشتري . قال عبد الله بن جدعان : ويحك يا صهيب !
 ماذا تقول ؟ لقد اشتريتك من بني كلب ، واشترك بنو كلب من
 الروم أو من العرب لا أدري . قال صهيب : فإنك لم تشتري ،
 وإن بني كلب لم يشتروني من نفسي ، وإنما عدا عليّ العادون
 فباعوني من بني كلب ، وباعني بنو كلب منك على كره مني لا عن
 رضا ولا عن اختيار . فأنتم تروني عبداً قنّاً وأنا أراني رجلاً حرّاً ،
 وأنتم تتسلطون على جسمي بما تملكون من قوة ومال وسلطان ، ولكنكم
 لا تجادلون لأنفسكم على نفسي سيلاً . قال عبد الله بن جدعان :
 فما أكثر الرقيق الذين يكتبون^(١) على أنفسهم ويشترون حرّيتهم
 بالأموال والأعمال ! قال صهيب : هم وما يصنعون ، أما أنا فإن
 أكتب وإن اشتري حرّيتي بمال أو عمل ؛ لأني ما زلت أراني حرّاً
 في نفسي . قال عبد الله بن جدعان : صدق حرب بن أمية ،
 إنك لذلك القلب جرىء الجنان ، ولكني أريد . . . قال صهيب :
 تريد أن تمتحنني ؛ فإن سلطانك عليّ يبيح لك أن تعرّضني لما شئت
 من محنة ؛ ففرني بما شئت فستراني عند ما تحب ، ولكن لا تعِدني
 شيئاً ؛ فإنني لا أكره شيئاً كما أكره الأمانى والوعود .
 وهم عبد الله بن جدعان أن يردّ عليه رجّع حديثه ، ولكن

(١) مكاتبه الرقيق : أن يكتب العبد على نفسه بئمه ، فإذا سمي وأداه عتق .

صهيباً لم يُمهله ، وإنما قال له متعجلاً : وهل لك في أن أخفف
 عنك بعض هذا العبء الذى ينوء بك ، وأن أفصح لك عما يضيق
 به صدرك ولا ينطلق به لسانك ؟ قال عبد الله بن جدعان : وإنك
 لتعلم دخائل الصدور ؟ ! قال صهيب : لقد نجحت في رحلتى
 إلى اليمن وأرض النجاشى وجلبت إليك مالا كثيراً ، فأنت تودّ
 لو أرسلتني في تجارتك إلى الشام وأرض قيصر ، وتظن أنى سأجلب
 لك منها أكثر مما جلبت لك في رحلة الشتاء ، وأنت تأمننى على مالك
 وتجاريتك لا تخاف أن يصيبك فيهما ضرر ، ولكنك لا تأمننى على
 نفسى ، وإنما تقدّر أنى قد نشأت حرّاً في بلاد الروم ، وأنى خالق
 إن رأيت هذه الأرض أن أقيم بها وألا أعود إليك ، وعسى أن
 أحتجز فيها ما استودعتنى من تجارة ومال . قال عبد الله بن جدعان
 أما هذا فلا ؛ إنك عندى أمين على المال والتجارة . قال صهيب :
 أو لست ترى بعض مالك ؟ فأمنّنى على نفسى كما تأمننى على
 ما سترسل معى من العروض . وبعدُ فأرّح نفسك من هذا العناء ،
 وانهض في تهيئة تجارتك إلى أرض قيصر ، فسأرحل عنك وسأعود
 إليك بمال لا عهد لك بمثله ؛ فأنا أعلم الناس بما يحب الروم وما
 يكرهون ، وليس لى في بلاد الروم أربّ ، وليس لى بالإقامة فيها
 ككَلَفٍ ؛ فقد علمتُ منذ آخر الصبا وأول الشباب أن بلاد الروم
 ليست لى بدار . وقد علمتُ منذ آخر الصبا وأول الشباب أن لى
 في قرينتك هذه أربّاً أى أرب ، ولولا ذلك لما أقمتُ معك ، ولما أذعنت

لسلطانك . وأى شيء أسير على مثلى من أن يفوتكم إن شاء القوت ،
ولستم بذوى حرس ولا بأصحاب شرط . ولو قد شئت لخادعتكم
فخدعتكم حتى أخرج من حرمكم هذا ، ثم تطلبوني ما وسعكم
الطلب فلا تجدون إلى سيلا ، ولو قد أدركتموني لم تقدرُوا على .
قال عبد الله بن جدعان : لك في قريننا هذه أرب أى أرب !
وما ذاك ؟ قال صهيب : لو عرفته لأنباتك به ، ولكنى نُبِئت منذ
آخر الصبا وأول الشباب أن محياى ومئانى فى أرضكم هذه : أعيش
فى حرمكم هذا شطراً من عمرى ، وأعيش فى حرم آخر شطره الذى
يبقى لى ، وأموت وأدفن فى أرض الحجاز . قال عبد الله بن جدعان :
ويحك يا صهيب ! إنك لتحدثنى بالأحاجى منذ اليوم ، وإنى
لا أعرف فى بلاد العرب حرماً غير هذا الحرم . قال صهيب :
وأنا لا أعرف فى بلاد العرب حرماً غير هذا الحرم ، ولكنى أحدثك
بما نُبِئت به فى آخر الصبا وأول الشباب ، وهو حديث سمعته من
قس فى بلاد الروم ، فلم أفهمه ولم ألق إليه بالا حتى رأيتنى أباع
ذات يوم من بنى كلب ، وسمعت سادق يتحدث بعضهم إلى بعض
بأنهم سبيعونى بثمان ربيع حين يفد عليهم الوافدون من سكان
الحرم من قرينش . ولو قد شئت أن أفلت من كلب لما أعيانى الإفلات ،
ولكنى أردت أن أمتحن نبوءة القس فألفيتها صادقة إلى الآن ،
وما أرى إلا أنها ستصدق حتى تبلغ مداها . فأرسلنى فى تجارتك
حيث شئت ؛ فإنى ناصح لك وعائد إليك . وارددْ إلى حريتى

إن أحببت ؛ فإنني مقيم في أرضكم هذه لا أريم ، وأُخْرِجَنِي مِنْهَا
 إن أردت حين يصبح الصبح ؛ فإنني راجع إليها حين يمسي المساء
 فقيم فيها حتى يكون ما لا بدّ من أن يكون . قال عبد الله بن جدعان :
 ما رأيت كالיום مغامراً مقامراً ! قال صهيب : هو ذاك . قال
 عبد الله بن جدعان : فاصحبني إلى المسجد ؛ فإنني أريد أن أشهد
 قريشاً على أنك حرّ . قال صهيب : حَسْبُكَ أَنْ تُشْهَدَ نَفْسُكَ
 وَتُشْهَدَ لِي عَلَى أَنِّي حرّ ؛ فليس لي في شهادة غيرنا على حرّيتي أرب .
 وأصبح عبد الله بن جدعان فتحدّث في أندية قريش بأنه قد
 أعتق غلامه الرومي صُهِيباً وحالفه وجعله أميناً على ماله كله وعلى
 تجارته في رحلتي الشتاء والصيف ؛ فسمعت قريش ولم تُنكر لما
 تحدّث إليها به حرب بن أمية مما كان لهذا الفتي من حسن البلاء
 في تجارة مولاه .

وأنفق صهيب زهرةً شبابه تاجراً لعبد الله بن جدعان ؛ يُثَمَّرُ
 ماله وينشر تجارته ، فيُسَبِّعُهَا طَوْرًا فِي أَرْضِ النَّجَاشِيِّ وَطَوْرًا فِي
 أَرْضِ قَيْصَرَ وَتَارَةً فِي أَرْضِ كَسْرَى ، حَتَّى أَصْبَحَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَدْعَانَ
 أَكْثَرَ قَرِيشَ مَالًا وَأَوْسَعَهَا ثَرَاءً وَأَعْظَمَهَا عَطَاءً وَأَسْنَاهَا يَدًا ، وَحَتَّى
 قَصَدَ إِلَيْهِ الشَّعْرَاءُ يَبِيعُونَهُ الثَّنَاءَ بِالْمَالِ الْكَثِيرِ . وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
 جَدْعَانَ كُلَّمَا سَمِعَ ثَنَاءَ النَّاسِ عَلَيْهِ وَأَرْضَاهُ ذَلِكَ قَالَ لَصْهَيْبَ :
 إِنَّمَا لَكَ شَطْرُ هَذَا الثَّنَاءِ ؛ فَأَنْتَ الَّذِي أَتَّاحَ لِي أَسْبَابَهُ وَيَسَّرَ لِي
 وَسَائِلَهُ . وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَدْعَانَ رَبَّمَا سَأَلَ صُهِيبًا بَيْنَ حِينٍ

وحين : ألا يزال لك في أرضنا هذه أرب ؟ فيُجيبه صهيب : أرب
 أى أرب ! يقول عبد الله بن جدعان : فهل تبينت أربك يا صهيب ؟
 فيقول صهيب : لو تبينته لما أخفيتّه عليك .

وأدرك الموت عبد الله بن جدعان ذات يوم ، وخلصت لصهيب
 نفسه كلها ، وكثر ماله ؛ وكان خليفاً إن شاء أن يتحول إلى أرض
 قيصر حيث نشأ ، أو إلى أرض كسرى في العراق حيث ولد ، ولكنه
 أقام بمكة لا يبرحها ، وجعل يثمر ماله مقتصداً في هذا التثمير ،
 لا يغدو في التجارة ولا يُبعد في الأرض ، وجعل يحيي سُنّة عبد الله
 ابن جدعان ، فيطعم الجائع ويُغني العائل ويُعين المحتاج . وجعلت
 قریش تطمئن إليه وتتق به ونأمن إلى حديثه ذاك الذي لا يكاد
 يُبين ؛ حتى أصبح ذات يوم فسمع قریشاً تتحدث في أُنديتها
 عن دار الأرقم بن أبي الأرقم ، ومن كان يجتمع فيها من الناس حول
 محمد بن عبد الله ، وما كان يُتلى فيها من القرآن ، وما كان يدار
 فيها من الحديث ؛ فيحس صهيب في نفسه كأن أربه ذاك الذي
 رافقه منذ آخر الصبا وأول الشباب إلى آخر الشباب وأول الكهولة ،
 قد جعل يدنو منه قليلاً قليلاً ، وقد أخذت نفسه تُنازعه إلى دار
 الأرقم بن أبي الأرقم ، فيصدّها ويردّها ويستمسك بالبقية على ما كان
 بينه وبين سادة قریش من المودة والإلف ، ولكن شوقه إلى دار الأرقم
 ابن أبي الأرقم يملأ عليه يقظة النهار ونوم الليل . حتى أصبح ذات
 يوم وقد أخذ نفسه بما تكره ، وخرج من داره يريد أن يمضي إلى

المسجد ، ولكنه يمضى ويمضى ، ثم لا يبلغ المسجد ، وإنما يجد نفسه أمام دار الأرقم بن أبي الأرقم ، ويرى غير بعيد منه عمار بن ياسر ، فيكون بينهما ما قدّمت من حديث ، ويدخلان ويستمعان ويُسَلِّمان ويُقيمان مع أصحابهما ، حتى إذا أقبل المساء خرجوا جميعاً مُسْتَخْفَيْن .

وافترقت قریش صهيياً يومها ذاك ، ثم افتقدته من غد ؛ ثم تحسس أبو جهل أخباره ، ثم أقبل ذات يوم وهو لا يمك نفسه من الغضب ؛ فلما رآته قریش قال قائلاً : ثارت ثورة أبي الحكم . ووقف أبو جهل على نادى قومه فأتكأ على قوسه ثم قال فى صوت المُحَنَّق المَغِيظ : اعلموا يا معشر قریش أن صهيياً قد صبا ، وأنه يُشارك آل ياسر فى عذابهم منذ اليوم .

١٠

لم تشهد خثعم يوماً كذلك اليوم الذى انتصرت فيه على عدو غير محارب ، والذى ملأت فيه أيديها من الغنيمة ، لم تتكاف فى ذلك عناء ، ولم تُبذل فيه بلاء ، ولم تبذل فيه جهداً ولم تلق فيه كيداً ، وإنما كان الرجل منها يمد يده إلى ما يليه من المال ثم يردّها وقد أصابت منه ما تريد وفوق ما تريد ، كأنما أنهبت مال النجاشى

إنهائياً ، وأمرت أن تأخذ منه حتى ترضى ؛ ولم تكن ترضى بالقليل ،
ولا تنقنع باليسير ؛ ولو قد استطاعت لاحتوت في ذلك اليوم مال
النجاشي كله ؛ فقد كان جيش أبرهة يعود منهزماً عن مكة ، قد
فقد حوله وطوله وقوته في غير حرب ، وحمل أميره عليلاً منهوكة
يتراعى له الموت فيقطععه ويفزعه ، ثم تراءى له الحياة فتد إليه
شيئاً من روح وراحة ، وبطانته مشغولة به جازعة عليه ، تأمل
وجه النهار وتياس آخره ، والجند الذين أعفاهم الموت وأبقت عليهم
الطير الأبايل يسعون متخاذلين متضائلين يتحاملون على سوق
لا تكاد تحملهم ، قد بلغ الجهد من أجسامهم ، وعبث اليأس
بنفوسهم ؛ فهم ظلال تسوق المال ، إلا أنها ظلال تخاف ولا
تُخيف .

وكانت خشم قد رأت جيش أبرهة وهو يسعى إلى مكة في قوة
أى قوة وعدة أى عدة ونشاط أى نشاط . فأما كرامها وذوو أحلامها
فتنحروا لأبرهة عن طريقه ، وكرهوا مقاومته وأنكروا مساومته ،
ورأوا أنه مقدم على إثم عظيم ، فربثوا بأنفسهم عن المشاركة فيه .
وأما سفهاؤهم وذوو الطيش والنزق منهم فتفرقوا شيعاً واختلفوا أحزاباً :
فمنهم من قاوم حتى أعيتته المقاومة فاستكان ، ومنهم من ساوم
فباع نفسه وأقبل على الإثم مستخفّاً به غير حافل بعواقبه ، ومنهم
من تنحى عن الطريق ولم يُبْعِدْ ، وإنما أقام رصداً يرقب الجيش
ويتربص به الدوائر وينتهر منه الغفلات ، يقتل هنا ويخطف هناك ،

ويلوذ بين ذلك بشعاف الجبال وشعابها^(١) ، حتى اضطغن عليهم أبرهة في نفسه وأقسم ليؤدبهم مُنصَرَفَه عن مكة أدباً تتسامع العرب به ، فتعرف للنجاشي هيئته وسلطانه . ولكن أبرهة لم يدخل مكة ولم يمَس بيتها بسوء ، ولم ينصرف عن مكة انصراف المنتصر ولا انصراف المخفق ، وإنما انصرف عنها انصراف المنهزم المخذول الذي فعل الدهر به الأفاعيل ، وإن لم ير جيشاً محارباً ولا عدواً مناوئاً ، وإنما رأى طيراً أبابيل ترميه وترمي جيشه بحجارة من سجيل ، فتجعله وتجعل جيشه كعصف مأكول . وقد أسرع ذوو خاصته به إلى اليمن ، وقد نهكته العلة حتى أشرف على الموت ، ومروا في طريقهم بخثعم ، فلم يبطشوا بها ولم يصبوا عابها عقاباً ولا عذاباً ، وإنما بطشت بهم خثعم فصبت عليهم العقاب والعذاب ، ولم يخلصوا منها إلا بشقّ الأنفس ، ومضوا يحملون عليهم بين الموت والحياة ، فلم يبلغوا به صنعاء إلا وقد انشق صدره عن قلبه وأدركه الموت بعد أن برّحت به العلة تبريحاً .

في ذلك اليوم ملأت خثعم أيديها من ذائب النجاشي وجامده ، فأخذت من الذهب والفضة . وأخذت من الإبل والخيول ما أغلّ عليها حين باعته مالا كثيراً ، وأخذت فيما أخذت نساء وفتيات من حسان الحبشة وكرائمهم كنّ يصحبن الجيش يرين في صحبته

(١) شعاف الجبال : أعاليها الواحدة شعبة . وشعابها : ما ينفرج بينها ، الواحد شعب بالكسر .

لذة وبهجة ومتاعاً ، ويرى آباؤهم وأزواجهن في استصحابهن تفريحاً
 عنهن وتسليّة لهن ، وإمتاعاً لأنفسهم باستصحاب هؤلاء الحسان
 في هذا السفر الذي لن يجدوا فيه مشقة ولن يتكلفوا فيه جهداً ، وإنما
 هو تسليّة للنفوس وتسرية للهموم وتأديب لهذه الفئة الجاهلة الغليظة
 من أهل البادية بهدم ذلك البيت الذي يُكسِبُونه ويعكفون عليه ،
 ويرون أنه وحده خليق بالإكبار ، وأنه وحده جدير بالتقديس .
 سفرٌ قاصدٌ ممتعٌ يجب أن تكمل فيه للرجال لذات أجسامهم
 وبهجة قلوبهم وقرّة عيونهم . ومن أجل هذا استصحب قادة
 الجيش وأمرأه زوجاتهم وبناتهم يمتنعن بالحب والرحمة ، ويؤنسهن
 بالود والحنان ، واستصحبوا القيان مُغنيات وعازفات وراقصات
 يزدن بهجة السفر وبهجة وجمال الرحلة جمالا . ولم يخطر لهم أنهم إنما
 كانوا يستصحبون الحرائر والإماء ليجعلاهن نهياً لأولئك العرب الخفاة
 الغلاظ البادين في طريقهم إلى البيت ، ولأولئك العرب الخفاة الغلاظ
 الحاضرين من حول البيت .

ويخرج سُحَيْنُ بن سُهَيْل الخثعمي مع الخارجين ويعدو مع
 العادين ، ويملاأ يديه كما ملأ بنو أبيه أيديهم ذهباً وفضة ونعماً
 وعُروضاً ، ولكنه يرى فيما يرى ناقة تسعى يقودها حبشي غليظ
 جهم ، يظهر عليه فضلٌ من قوة وبأس ، ولكنه متخاذل متواكل
 قد نهكه الجهد وأضنته العلة ، فهو يسعى مذعناً لأمر سادته ،
 ولو استجاب لنفسه لاستراح في هذا الجانب أو ذاك من جوانب

الطريق ، وترك هذه الناقة تقود نفسها وتسعى إلى حيث تريد أو إلى حيث يريد لها القضاء . وينظر سُحيم بن سُهَيْل فيرى على هذه الناقة هودجاً نفيساً قد أُلقيت عليه أُستارٌ من الحرير المطرز بالذهب المرصع بشيء من الجوهر ؛ فيستهويه ما يرى ، ويُسرِع إلى العبد ورمحه يضطرب في يده . فلا يكاد العبد يراه حتى يحوِّل إليه زمام الناقة ويسعى بها بين يديه مستسلماً صاعراً ذليلاً . قال سُحيم بن سُهَيْل للعبد : لمن تكون هذه الناقة ؟ ولن يكون هذا الهودج ؟ قال العبد في لهجة عربية كدرة لا تكاد تبين : إنها ابنة أخت الأمير . قال سُحيم بن سُهَيْل لنفسه وهو يدفع العبد والناقة إلى بيته : حسبى من الغنيمة هذا العبد وهذه الناقة وما تحمل من متاع نفيس . فأما ربة الهودج فليست منى ولست منها في شيء ، ولأطرفنَّ بها سيِّداً من سادات قريش .

ويسعى والعبد يسعى بالناقة بين يديه ، حتى إذا بلغ مضارب الحى أوماً إلى العبد فأناخ الناقة ، ووقف غير بعيد مطرقاً إلى الأرض كأنما يلتبس فيها شيئاً . ولكن سحياً يوى إليه فينزل الهودج عن مستقره على ظهر الراحلة ، ويتنحى فيقف غير بعيد مطرقاً إلى الأرض كأنما يلتبس فيها شيئاً . ويدنو سُحيم من الهودج مترقياً ، ويرفع أحد أُستاره متلطفاً ، ثم يمد بصره في الهودج ، ثم يرده إلى نفسه وقد امتلأ وجهه ابتساماً وإشراقاً وهو يقول : حمامةٌ رشيقة أنيقة ورب البيت ! ذلك أنه رأى فتاة رائعة الحسن على سُمرةٍ بَشَرَتها ، بارعة الجمال ،

فاتنة اللحظ ، ليست بالطويلة ولا بالبدينة ، وإنما هي ضئيلة
 نحيلة ، قد ملأها الذعر وملكها الرُّوع ، ولكنها على ذلك جلدة
 متماسكة يصدّها الحياء والوقار عن أن تُظهر ما يملأ قلبها من جَزَع
 وهَمَلَع ومن تَوَلَّه والتِياع . ويمدُّ سُحَيْم بن سَهيل نظره إلى الفتاة ثم
 يرده إلى نفسه ووجهه يزداد إشراقاً وبتساماً ، ولسانه لا يزيد على أن
 يقول : حمامةٌ رشيقةٌ أنيقةٌ وربّ البيت ! ثم يخرج الفتاة من
 هودجها خفياً بها متلطفاً لها يقول : لا تُرَاعِي ، لا تُرَاعِي يا ابنتي ،
 فلن أريد بك سوءاً ، ولن يَمَسَّكَ مني شيء تكرهينه . ثم يأخذ
 بيدها ويسعى بها مستائياً ، والفتاة تُطيعه . وكيف لها بغير الطاعة !
 حتى إذا دخل بها إلى أهلها قال لامراته في صوت حازم صارم :
 استوصي بهذه الحمامة خيراً ، فإن دار خَشَعَم ليست لها بدار ،
 وإنما مكانها عند سيد من سادات قریش . ثم يخرج فيُحرز الهودج
 والناقة والعبد ، ويعدو ليدرك الناهيين من بني أبيه عسى أن يصيب
 من الغنيمة فوق ما أصاب .

ولم يمض شهر بعد ذلك اليوم حتى كان سُحَيْم بن سَهيل عند
 خَلْف بن وهب الجُمَحِي في ضَيْعة له بالسَّراة ، قد أقبل ومعه
 أميرته تلك الفتاة الحبشية حتى أناخ عند دار خلف . وتلقاه أهل
 الدار كما تعود العرب وكما تعودت قریش أن تتلقى ضيفها ، ولكنه
 لم يكد يفرغ من تحيته حتى قال : لو تعلم بماذا أقبلت عليك يا سيد
 مُصَحَّ ! قال خلف : بالخير ، وما أقبلت قطّ إلا بخير . قال سُحَيْم :

أقبلت عليك بابنة أخت الأمير ، ذلك الذى أقبل غازياً للبيت
فردّه رب البيت مخذولاً مدحوراً . قال خلف : ابنة أخت أبرهة ؟
قال سُحَيْمٌ : نعم ابنة أخت أبرهة . قال خلف ما اسمها ؟ قال سُحَيْمٌ :
ما أدري ، ولكن لم أكد أرى جسمها الضئيل الرشيق الجميل حتى
سميتها حمامة ، وحتى رأيت أنها لا تصلح لأحد من خثعم ولا لأحد
من العرب إلا أن يكون سيّداً من سادات قريش حُجاة البيت وسدّة
الآلهة ، وأنت تعلم ما بينى وبينك من الحاف والود القديم . وهمّ
خلف أن يسأله عما يريد لها من ثمن . ولكن سُحَيْمًا قال له عَجِلاً :
مهلاً أبا أمية ، إنى لم آتئك بهذه الأميرة تاجراً ، وإنما أتيتك بها مُطَرَفًا
لك هدية الصديق إلى الصديق . قال خلف : وصَلَّتْكَ رَحِمٌ !
وأظهر الرضا والاستبشار والشكر ، وعرف فى دخيلة نفسه أن هدايا
الأعراب تُقبل وتُجزى بخير منها . ثم أمر بالفتاة فحوّلت إلى
حيث أهلها ، لم ينظر إليها ولم يحفل بالنظر إليها ، ثم تحدّث إلى
سُحَيْمٍ فيما يتحدّث فيه المضيف إلى الضيف ساعة ، ثم أطرق إطراقة
طويلة . ووقع فى نفس سُحَيْمٍ أن طُرِفَتْه لم تبلغ من نفس صديقه
ما كان يريد . ولكن خلفاً يرفع رأسه ويقول : هل تعلم يا سُحَيْمٍ أنك
لم تُسَلِّ إلى معروف كهذا المعروف الذى أسديته إلى منذ اليوم ؟
إننا لم نُقاتل أبرهة ، ولم نَدُدْ عن البيت ، وإنما أمرنا أن نتفرق
عنه وأن نترك حمايته لربه . وقد حمى صاحب البيت بيته ورّد عنا
أبرهة وفيله وأحباشه ونحن ننظر إلى ذلك من قِسم الجبال ومن ثنايا

الطرق التي أوينا إليها وتفرقنا فيها . فلما ارتد عنا العدو نُبِئنا إلى مكة
وعدنا إلى بيوتنا وفي نفوس كثيرة منا حَسَرَات ؛ لأننا لم نُؤَدِّ لهذا
البيت حقه علينا من الذود عنه والقيام بدونه . فأنت حين تحمل
إلى هذه الأميرة إنما تتيح لي أن أشفي نفسي . فوربَّ هذه البِئْسَية^(١)
التي لم أذُدْ عنها لأذلنَّ أميرتك هذه الحبشية ذلاً لم تعرفه الحبشيات
بعد . وأول ذلك أنها لن تدخل مكة ، ولن تطأ أرض الحرم ؛ فقد
رَدَّ صاحبُ الحرم هذا الرَّجسَ عن أرضه وبيته . قال سُخَيْمُ :
وَيْحَكَ أبا أمية ؛ لو عرفت أنك ستلقى هذه الحمامة الرشيقة الأنيقة
هذا اللقاء السيء لآثرتُ بها نفسي . قال خلف متضحكاً : هيهات !
إنما هو أمرٌ يراد قد دَبَّره من هو أعظم منك وبنى سلطاناً . إن هذه
الأميرة يجب أن تُستذلَّ قريباً من هذا الحرم الذي أراد قومها أن
يستدلوه ، وإنها ما عاشت لن تعرف الحرية ولن تلد الأحرار .
قال سُخَيْمُ : فأنت إذن تربأ بنفسك عنها ، فارددها إلى . قال
خلف وقد أغرق في الضحك : هيهات ! إني أربأ بك أنت عنها
أيضاً ؛ فقد قلتُ إنها ما عشتُ لن تلد الأحرار . إن لي في هذه الضيعة
إبلاً وشاء يرعاها غلمان لي فيهم الأسود والأصفر ، فسترعى معهم
هذه الإبل والشاء . وهم سُخَيْمُ أن يراجع صديقه في بعض ما قال ،
ولكن خلفاً حول الحديث وشغل صاحبه عنه بأنباء اليمن وأحداث
تهامة والحجاز .

(١) البئسية : السكبة .

ودخل خَلَفٌ على أهله بعد أن عثى الناس وتقدّم الليل ،
 فألقى امرأته محزونة كئيبة ، فلما سألتها عن أمرها لم تردّ عليه جواباً ،
 وإنما قالت له في لهجة حزينة : ماذا تريد أن تصنع بهذه الفتاة
 الحبشية الحسنة التي جابها لك سُحيم ؟ قال خَلَفٌ وكأنه أراد أن يثير
 في نفسها شيئاً من غيظ : استوصى بها خيراً أم أمية ؛ فإنها ابنة
 أخت الأمير صاحب الفيل . قالت أم أمية وقد أجهشت بالبكاء :
 لم يبقَ إلا أن نرفق بالذين غزوا دارنا وأرادوا أن يستبيحوا الحرمَ
 وأن يهدموا البيت . هنالك أقبل خلفٌ على امرأته فمسح رأسها وهو
 يقول : لا عليك أم أمية ! فما أردت إلا إلى الدعابة . إن هذه الفتاة
 لم تعرف في حياتها إلى الآن إلا العزة والكرامة ، وإني قد أقسمت حين
 أهداها إلى سُحيم ألا ترى منذ اليوم إلا الذلّة والهُون . إنني لم أبُلْ
 في حماية الحرم شيئاً من بلاء ، فلا أقلّ من أن أذلّ الحبشة في
 أميرتهم هذه . قالت أم أمية : فاجعلها لى خادماً إذن . قال خلف
 وهو يضحك : هيات ! ليست خدمتك ذلة لها أم أمية . قالت
 أم أمية : اجعلها لى خادماً ، وسترى كيف أذيقها الذلّ . قال
 خلف : قد فعلتُ على أن تُقيمى في ضيعتنا هذه بالسّراة ، وعلى ألا تطأى
 الحرم ولا تدخل مكة ؛ فإن ربّ هذا البيت قد ردّ هؤلاء الناس عن
 الحرم ، وما أريد أن أخالف عن أمره ولا أن أوطئها الحرم ، حتى ولو كانت
 أمةً خادماً ، ولكنني سأرعيها الإبل والشاة فيمن يرعى الإبل والشاة
 من عبيدنا وإمائنا . قالت أم أمية : ما أجدرك أن تسود في قریش !

وكان لخلف غلام من مولدَى الحبشة يقال له رَبَاحٌ قد نَيْفَ
على العشرين ، وكان ذكياً صَنَاعَ اليد حازمَ الرأى ، قد أَرْضَى
سيده حتى أعتقه وجعله قَيِّماً على ضيعته تلك فى السرة . فلما أصبح
خلفٌ دعا إليه مولاه وقال وهو يبتسم : إيه يا رَبَاحُ ! هذه أميرة
من أمرائكم قد جُلبتْ إلينا أمس ، وقد علمتَ ما كان من قومك ،
وإنى قد أزمعت أن أرفعها الإبل والشاء ، فهل أكلها إليك لتذيقها
من الذلِّ والهُونِ ما أرى أنها أهل له ؟ قال رباح : وما يمنعك
من ذلك وقد رأيت صنيعى بغلماذك على اختلاف أجناسهم ؟ ألسنت
آخذهم بالحزم والصرامة حتى أحلهم على الجادة فى خدمتك ؟
قال خلف : هو ذاك ، فخذ هذه الفتاة فألبسها ثياب الرعيان
وأرسلها مع أمثالها . قال رباح : فإنى لا أرى لها فى هذا إذلالاً ولا
امتهاناً ، ولكن عندى خُطة أعرضها عليك عسى أن تبلغ بها ما تريد .
قال خلف : هات . قال رباح فإنى لست من أمراء الحبشة ولا من
ساداتها وإنما أنا من دهنمائها ، وفى من الزنج عرقٌ ، ولولم أجلب
إلى بلادكم هذه لما طمعت أن أكون خادماً فى قصر هذه الأميرة .
قال خلف وقد ابتسم قلبه وثرغره : فأنت تريد أن تتخذها لنفسك
زوجاً ؟ قال رباح : إن كنت إنما تريد إذلالها وامتهانها وإذلال
سادة الحبشة وقادتها فاجعلها زوجاً لغلام زنجى من غلمانك . قال
خلف : قد فعلتُ ، فكن لها زوجاً منذ الآن ، وإذا ارتفع الضحى
فاضمم أهلك إليك .

وكان الزنجي في خُطَّتِه هذه ماهراً ماكرّاً ، ولعله لم يكر بسيله قبل يومه ذاك ولم يكذب عليه ؛ فقد عرف من شأن الأميرة ما عرف ، واستبان له أن سيده يريد أن يسومها الخسف ، وشق عليه ذلك ، وقدّر في نفسه أن يعمل ما استطاع لصيانتها مما يُدبّر لها من الخوان ، فلم يهتد إلا إلى هذه الخطة . فلما رأى أن الأميرة قد أصبحت له زوجاً طابت نفسه واطمأن قلبه ورضى ضميره وعرف أنه سيضمها إليه وسيخذها لنفسه صَنماً يُخلص له الحب ويُؤثره بالود ويقدم له من آيات الإكبار والإجلال ما يستطيع مثله أن يقدم لمثلها في هذه الحال السيئة التي هما فيها . وعسى الأيام أن تُحدثَ بعد ذلك أمراً .

وضم رباح زوجه الأميرة إليه ، فأسكنها داره الفقيرة الحقيرة ، وجدّ في إكرامها والرفق بها ، واختصها بكل ما استطاع أن يختصها به من المحبة والمودة والتوقير ، يغدو عليها بما تحب ، ويروح عليها بما تحب ، ويَجْنُبُها ما تكره أثناء النهار ، فإذا كان الليل وأن له أن يأوى إلى مضجعه ألقى وسادة من وراء باب البيت ورمى نفسه عليها ، وأنفق الليل نائماً أو يقظان يُعنى بزوجه ويسهر عليها ، لا يمسه ولا يدنو منها .

وقد أقبلت الفتاة على زوجها مدعنة مستكينة . فلما رأت إكباره لها ورفقه بها اطمأنت إليه وأنست به واحتفظت بمكانتها منه ؛ فبجعت تتحدث إليه حديث السيد إلى العبد ، ولكن في شيء من التواضع

والأناة وحسن التأني ، وجعل هو كلما رأى منها رفقا به وعطفاً عليه
ازداد لها حباً واشتد إكباره لها وتوقيره لمكانتها . وأنفقا على ذلك
أشهرراً وأشهرراً والفتى حَنِيفٌ بزوجه لا يدع شيئاً يقدر عليه إلا أتاه
ليجنّبها ما تكره ، وليجعل الرقّ أخف عليها حملاً ، ولييسر لها
الصبر على محنتها . ولكن أمور الناس تجري على غير ما يُقدرون
ويدبرون .

فقد أزمع الفتى في نفسه أن يسير مع هذه الفتاة سيرة الخادم
المهين مع السيدة الكريمة المستعلية التي تملك من أمره كل شيء ،
وأزمع في نفسه أن هذا الزواج ليس إلا خداعاً لهذا السيد العربي
الذي أراد أن يهين أميرة من أميرات الحبشة . وأى بأس عليه في
أن ينصح لسيدة ما وسعته النصيحة ، ويُخلص في خدمته ما وجد
إلى الإخلاص فيها سبيلاً ، ويقوم على ماله أحسن قيام وأرفقه : يدبره
ويثمره كأحسن ما يكون التدبير والشمير ، لا يستثنى من ذلك
كله إلا هذه الفتاة ؛ فإنه لا ينصح فيها لمولاه ، ولا يطيع فيها
أمره ، وإنما ينصح فيها لنفسه وقومه ، فيؤثرها بالحب ويختصمها
بالإكبار والكرامة رعايةً لمنزلتها في بلادها تلك البعيدة النائية .

هي زوجه عند خلف وأضرابه من سادة قریش ، وهي زوجه
عند هؤلاء الغلمان الذين يسوسهم بالحزم ويأخذهم بالعنف ، ولكنها
مولاته وأميرته فيما بينها وبينه وفيما بينه وبين نفسه .

أضمر الفتى ذلك في قلبه ، وفهمت عنه الفتاة ما أضمر ،

فقبلته راضية ، واطمأنت إليه مغتبطة ، واعتقدته في ضميرها مخلصاً ، وسارت معه سيرة الأميرة لا سيرة الزوج ؛ ولكنه يغدو عليها بالطاعة والرضا ، ويروح عليها بالطاعة والرضا ، يقوم دونها ما أضاء النهار ، ويسهر عليها ما أظلم الليل . وهى ترى ذلك لها حقاً أول الأمر . ثم تفكر وتقدر فتعلم أنها أمةٌ ليس لها حق على أحد ، وإنما لسادتها عليها الحق كل الحق ، ولهذا الغلام عليها نصيب من حق سادتها ؛ فهم قد جعلوها له زوجاً ، وجعلوا له عليها حقاً .

تفكر الفتاة في هذا فتناهى عنه بجانها أول الأمر ، ثم تعاود التفكير فيه وتعاود النأى عنه . ثم يتصل تفكيرها فيه ، ويتصل برّ الفتى لها ورفقه بها وإيثاره إياها بالطيب من نفسه وبالطيب من الحياة ، إن كان في حياة الرقيق شىء من الطيبات . وإذا الفتاة تجد في نفسها عطفاً على هذا الفتى ، ثم ميلاً إليه ، ثم احتياجاً إلى إلى مكانه منها ، ثم وحشة حين يغيب عنها فيطيل الغياب .

وتمضى أيام وأسابيع والفتى ماض في حبه الخالص وبره الصادق ، والفتاة ماضية في هذا الاضطراب القلق المقلق . ثم تحسن الفتاة حاجتها إلى أن تأنس إلى الفتى أكثر مما أنست إليه ، وإلى أن يأنس الفتى إليها أكثر مما أنس إليها أثناء هذه الشهور الطوال . تود لو استطاعت أن تلغى ما بينها وبينه من الكلفة ، وأن تتحدث إليه ويتحدث إليها حديث الرفيق إلى الرفيق . ولكنها لا تجد الوسيلة إلى ذلك قريبة ولا ميسرة ؛ فقلبها يبسم للفتى ، وتغرها يريد أن

يبتسم فيرده عن الابتسام فضل من حياء . ولكنها مع ذلك تلحظ
الفتى حين يُقبل عليها أو حين يتحدث إليها في بعض الأمر لحظاً
فيه شيء من دعة ورفق وأنس ، ويبلغ لحظها من الفتى أعماق
نفسه فيملؤها غبطة وفرحاً ورضاً ، ثم لا يزيد على ذلك .

فلم يُحدث الفتى نفسه بأمل قريب أو بعيد ، ولم يُخطر الفتى
على باله أن من الممكن أن تُلغى المسافات والآماد بينه وبين أميرته ،
أو ينظر إليها ذات صباح أو ذات مساء نظرة الطامع أو الطامح ،
وإنما هي بالقياس إليه أميرة قد استقرت على عرش يمكن أن يرقى إليه
الطرف ولا يمكن أن ترقى إليه النفس ، فضلاً عن أن ترقى إليه القَدَمَانِ .
وكذلك أصبح الأمر بين هذين الرفيعين أمراً عجباً : هما
زوجان أمام الأحرار والرقيق ، وهما زوجان أمام العرف الذي اصطلاح
الناس عليه . ولكن الفتى يُكبر الفتاة عن أن تكون له زوجاً ،
والفتاة لا تكبر نفسها عن ذلك ، ولا تتمنى شيئاً غيره ، ولا تجد
السييل إليه ، حتى استحالت الصلة بينهما إلى شيء غير مألوف ،
فالفتاة عاشقة وامقة ، ولكن الفتى يرى نفسه أقل من العشق وأصغر
من الوموق . وربما ضاقت الفتاة بهذه الصلة التي جعلت تُنكرها ،
وربما وجدت (١) على الفتى وظنت به الغرور والكبرياء ، وإن لم يجد
الفتى في نفسه إلا التواضع والهوان . ولولا حرص الفتى على أن يكون
رفيقاً رقيقاً ، وحرص الفتاة على أن تكون عارفة للجميل شاكراً

(١) وجدت عليه : غضبت .

للنعمة مقرة بالمعروف ، لحاز أن يفسد الأمر بينهما . والفساد لا يُسرّع إلى شيء كما يسرّع إلى صلة المحبين حين يبالغ الحب بينهما أقصاه ، وحين تثور الصعاب وتقوم العقاب بينه وبين غايته . فقد جعل صدر الفتاة يضيق ، وجعل السأم يسعى إلى نفسها ، وجعلت لا تُحسّ شيئاً إلا أنكرته ، وجعلت تشعر بأن خُلِقَ لها يريد أن يسوء . وأحسن الفتى منها بعض ذلك ، فغلا في الرفق ، وأمعن في التلطف . واشتد ضيق الفتاة بذلك حتى قالت له ذات يوم : إنك لتغلو في الرفق بي والتلطف إليّ ، وإنك لتريد الإحسان فتحطه إلى الإساءة ، وإنك لتعلم أني محتاجة منك إلى شيء غير هذا التلطف والترفق . قال الفتى في تواضع وتضائل : وما ذاك ؟ قالت الفتاة في سخريّة مُرّة لاذعة تمزق القلب : إنك لتعلم أنك حرٌّ وأنى . . . قال الفتى : مهلاً ! إني حديث عهد بالحرية ؛ فقد كنت قنناً منذ عامين . قالت : قنا منذ عامين ، وقد رُدّت إليك الحرية وانحط عنك الرق ، فأنت أرفع مني مكاناً وأحسن مني حالاً ؛ فما تواضعك وتضائلك وإمعانك في العناية بما مضى من الدهر ، وأنت خليق لا أقول بأن تستكبر وتستعلى ، وإنما أقول بأن تذكر ما نحن عليه اليوم ، وما يمكن أن نصير إليه غداً . إنك لتذكر أني كنت أميرة ، وتحفظ لي حقّ الإمرة ، ولكنك أجدر أن تذكر أن الإمرة قد مضت مع الأيام التي مضت ، وأنى قد صرت إلى الرقّ حين عُدت أنت إلى الحرية . وأنت بعد هذا كله قد اتخذتني زوجاً . قال الفتى :

إنما اتخذتك زوجاً لأردّ عنك ما يراد بك من سوء . قالت الفتاة :
فقد فعلت ، وإنى لذلك لشاكرة ، ولكنك اتخذتني لنفسك زوجاً ،
فليكن الأمر بيننا كما يكون بين الأزواج . هنالك انهلت دموع
غزار من عيني الفتى ، لم يعرف أكانت دموع الحزن أم دموع
السرور . وهنالك صعد الدم إلى وجه الفتاة فأسبغ عليه حمرة قانية
لم تعرف أكانت حمرة الخجل أم حمرة الابتهاج بأنها قد اقتحمت
ما كان بينها وبين زوجها وشقيق نفسها من العقبات .

أقبل خلف ذات يوم فألمّ بضيعته في السراة ، وعرف من أمرها
ما كان يريد أن يعرف ، وسمع من قيمه رباح ما كان يجب أن
يسمع ، ورضى عما رأى وما سمع وما عرف . فأدور الضيعة تجرى
على خير ما كان يجب : مال كبير ، وغلة غزيرة ، وأمانة من رباح
لا يرقى إليها الشك . وقد بلغ الرضا من نفس خلف أن تمنى أن
يحسن إلى قيمه وأن يكافئه على ما بذل من جهد ، فأهدى إليه
إبلاً وشاء ، وفضلاً مما تُغِلُّه الضيعة من ثمر الأرض ، وتلقى منه
شكره للجميل ، فاغتبطت نفسه واطمأن قلبه . وهمّ القيم أن ينصرف
راضياً موفوراً ، ولكن خلفاً يستوقفه ويسأله في دُعاة حلوة : إيه
يا رباح ! أيكما العقيم ؟ فقد مضى دهر منذ أملكك تلك الحمامة
الحبشية ، ولم أر لكما ولداً . فوجم القيم شيئاً ، وهمّ أن يتكلم
ولكن الحياء عقد لسانه ، فغض بصره وأطرق إلى الأرض . وألح
عليه خلف في السؤال ، وأعاد إليه مقالته متضحكاً : إيه يا رباح !

أيكما العقيم ؟ قال رباح وقد عاد إليه شيء من جراءة وشيء من حفاظ : وما يعينك أن نعقم أو أن يكون لنا الولد ؟ قال خلف : على رسلك يا رباح ! إن تكن حرّاً فإن حامتك أمة . قال رباح مغضباً : فأنت إذن قد زوجتنيها لتستغلها وتستغاني كما تستغل الإبل والشاء ! قال خلف : إنك لغضوب يا رباح . إني لم أرد أن أسوءك ، وإنما أردت أن أرفق بك وأن أعرف بعض أمرك . قال رباح : فأعرف إذن من أمري ما تحب . ثم ضرب يده على جبهته وهو يقول : ويلاه ! لقد أنسيت أنها أمة ، وأن ابنها سيكون قنّاً مثلها . قال خلف : وإن لها لابناً يا رباح ؟ قال رباح : نعم ، ولو أطاعتني نفسي ، ولو أطاعتني هي لودته كما تلدون بناتكم ! فليس مما يسر ولا يرضى أن يعرف الرجل أنه يُستفحل كما تُستفحل الإبل . قال خلف وقد بدا في صوته شيء من الأسى : ويحك يا رباح ! إنك لشق على نفسك وشق على غير طائل . وإيم الله ما أردت استغلالك ولا استفحالك ! وإنك لتذكر كيف تقدّمت إليك أن تُرعى هذه الفتاة مع رُعياننا ، فتمنيت على أن أجعلها لك زوجاً ، وزعمت لي أن ذلك أباغ فيما كنت أريد لها من الذل . فما خطبك ؟ وماذا عرّض لك ؟ . . . هنالك ثابت إلى رباح نفسه ، وذكر احتياله في صيانة الأميرة مما كان يراد بها من سوء ، وذكر أنه لم يخدع موله ولم يكذب عليه قط إلا هذه المرة ، وحرّص على أن يُخفي خداعه وكذبه مخافة أن يُصيبه ويصيب زوجه بعض

الشر ، فقال وهو يتكلف ضحكاً خيراً منه البكاء : وماذا تريد أن أقول لك ؟ لقد وقعت من نفسي فأحببتها . قال خلف : أحببتها وكنت تريد أن تُذلَّ لها ! قال رباح : أميرة صارت إلى الرقّ وُزِّجَتْ من عبد لم يكن ليطمع في خدمتها ، فاحتملت ذلك مدعنة له ، ثم راضية عنه ، ثم سعيدة به ، فكيف تريد أن أذلَّ لها أو أهينها ؟ قال خلف في صوته الحزين : هو ذاك ! هو ذاك ! قد ألغى الرق ما كان بينكما من تفاوت الدرجة واختلاف المنزلة . قال رباح متضحكاً : أليس غريباً أن يكون الرق هو الذى يسوّى بين الناس ويُلغى ما بينهم من تفاوت الدرجة واختلاف المنزلة ، وأن تكون الحرية هى التى تفرّق بين الناس فتجعل منهم الغنى والفقير والقادر والعاجز والقوى والضعيف والسيد والمسود ؟ متى ينقضى هذا الليل ، ومتى يُسفر عن الصبح المشرق الجميل ! قال خلف : وَيَحْكُ مَاذَا تقول ؟ أى ليل وأى صبح ؟ قال رباح : الليل هو هذا الدهر الذى نعيش فيه والذى يسوّى فيه الرقّ بين الأرقاء ، وتفرّق فيه الحرية بين الأحرار . والصبح هو الزمان المقبل الذى يسوّى فيه بين الأحرار والعبيد ، ويتأيز الناس فيه بأعمالهم وبلائهم ، لا بمنازلهم وحظوظهم من الثراء . قال خلف وقد أغرق في الضحك : لقد تكهنت يا رباح منذ اليوم ! دع ليلك المظلم وصبحك المشرق ، وحدّثنى عن صبيك هذا الذى كنت تريد أن تتده منذ حين ، ما اسمه ؟ وما شكله ؟ قال رباح : إنك لتسخر من ليلي وصبحي ،

إن ليلى لمنجل ، وعسى أن ندرك انجلاءه ، وإن صبحى لمسفر
وعسى أن ندرك إسفاره ؛ فإن لم ندركه نحن فسيدركه ابنك أمة
وسيدركه ابني بلال . فهزّ خلف رأسه ورفع كتفيه وقال : حَسْبُكَ
يا رباح ، تحدثت بهذا إلى غيرى ؛ أما أنا فإني زائد في عطائك
لمكان هذا الصبي من أسرتك ، ولولا أن قسما عظيما قد سبق منى
لرددت إلى زوجك حريتها ولجعت ابنك حرّاً مثلك ، ولكنك تعلم أنها
أقبلت غازية لنا مستخفة بنا منهكة لحرماتنا . فأَمْسِكْ عليك أهلك ،
وعيشا سعيدين بصيبيكما ، فلن يَمَسَّكُمْ ما حيت سوء ، ولكنى
لا أقدر لكم على أكثر من ذلك . قال رباح وهو يهز رأسه ساخرّاً :
أقبلت لكم غازية ! أقبلت لكم غازية ! وماذا كانت تعرف
من أمر الغزو ! لقد كانت فتاة غافلة لا تكاد تعقل نفسها ، ولكن
الكبار يأثمون فيؤخذ الصغار بأنامهم . قال خلف : ما رأيت كالיום
حكيماً . انصرف الآن عني واستقبل حياتك سعيداً موفوراً ، ولا
تُدع حكمتك هذه في الناس فيصيبك منها بعض ما تكره .

وعاش رباح وحمامة ما شاء الله أن يعيشا ، قد رضا من الحياة
بما قُسم لهما ، وفرغا لابنهما بلال وأخيه الذى نسى التاريخ اسمه
وذكر بعض أمره ، يُتَشَنَّهُما كما تعود أمثالهما تنشى أبنائهم في
منزلة وَسَطَ بين منزلة الأحرار ومنزلة الرقيق . ثم انصرفا عن هذه
الدنيا وتركا فيها هذين الغلامين يعملان في ضيعة خلف ، ويسعيان
في خدمة جُمَحَ كلها . وعاش خلف ما شاء الله أن يعيش ، ثم

انصرف عن هذه الدنيا وترك ابنه أمية فتى قوياً جليداً ، وارثاً مع إخوته لما ترك من العروض والأرض ومن النعم والرفيق . لم يشهد رباح ولم تشهد حمامة ولم يشهد خلفاً انحسار الليل المظلم وإسفار الصبح المشرق ، إنما رأى بلال إسفار الصبح فامتلاً قلبه به نوراً ، ورأى أمية إسفار الصبح فامتلاً قلبه به ظلمة . وآل أمر بلال إلى أن أصبح من أحب الناس إلى النبي وآثرهم عنده ، وآل أمر أمية إلى أن أصبح من أبغض الناس إلى النبي حتى قُتل يوم بدر ، وأورث بغضه وعداؤه للنبي أخاه أبيّاً ذلك الذي همّ أن يقتل النبي يوم أحدٍ ، ولكن النبي يمسه برمحه فيفتح له باب الموت .

ويُقبل أمية ذات يوم ليشهد ما كان أبو جهل يصبّ على آل ياسر من العذاب ، فيقف ثم ينظر ثم يرى ثم يهزّ رأسه ثم يقول لأبي جهل : إذا كان الغد فأُقبِلْ على دار بُجَحْ لتري كيف نعذب الصابئين من مستضعفينا ، وكيف نعذب زعيمهم بلالا !

١١

شدّما تعنفون بهذا الصبي وتشتطون عليه ! ما رأيت كالיום رجالاً فُسّاة القلوب جُفّاة الطباع غلاظ الأكباد ! . . قالت ذلك أمّ أنمار ، ثم أَلقت بنفسها بين أولئك الرهط من أعراب بني

عامر ، فجعلت تدفع في صدر أحدهم بقبضة يدها اليمنى ، وتجذب ثوب أحدهم الآخر بيدها اليسرى ، تريد أن تردّهم عن ذلك الصبي الذي ألحوا عليه صفعاً وصقّعاً وتأنيباً. وكان أولئك الرهط من بني عامر قد أقبلوا من نجد يسوقون بين أيديهم مطايا تحمل تجارة من حَبِّ العراق . فلما باعوا تجارتهم وباعوا الرواحل التي كانت تحمل هذه التجارة ، أرادوا أن يبيعوا غلامهم ذاك ، فعرضوه هنا وهناك ، ولكنهم لم يجدوا طالباً له ولا راغباً فيه ، فأحفظت عليه نفوسهم وقست عليه قلوبهم ، وهمّوا أن ينصرفوا به ليعرضوه على من يمرّون بهم من أحياء العرب ، لعلهم أن يجدوا له مشترياً . ولكن الغلام أظهر شيئاً من التمتع والتأبى ، كانت نفسه تكره أن ينقلب معهم لكثرة ما صبّوا عليه من الأذى وما نالوه به من المساءة . فلما أظهر الامتناع عليهم جدّوا في تأديبه وتأنيبه . وأدركتهم أم أعمار الخزاعية وهم يصنعون به هذا الصنيع ، فرقّ له قلبها ، ورحمته مما كان يلبقى من الضر ، فاندفعت تردّهم عنه وتحميه . قال أحد أولئك الرهط من بني عامر لأمّ أعمار : ما أنت وذاك ؟ ما رأينا كالיום امرأة سوء ؟ ولو كنت في غير هذا الحرم لمسك منا بعض ما تكرهين . قالت أمّ أعمار وقد أخذ الغضب يسكت عنها ، وأخذ الابتسام يسعى في وجهها المتجعد : ولكني في هذا الحرم ، فان تصل إلى أيديكم . ألا تستحيون من أجسامكم هذه الطوال العراض ، ومن لحاكم هذه التي وخطها الشيب ، ومن ليمكم هذه التي ترسلوها

على أكتافكم أن تبطشوا بهذا الصبي النحيل الضعيف ! قال أحد
 العامرين : لو أهلك من طعامه ومؤنته ما يهمننا لما رحمته ولا رَفقت
 به ؛ إنه والله لَغلامٌ سوءٌ ، يكلفنا من المؤونة ما يكلفنا ثم لا يغني
 عنا شيئاً ، ثم لا يكفيه ذلك حتى يُخالف عن أمرنا ويأبى أن يتبعنا ،
 كأنما أعجبتَه هذه القرية مع أنه لم يُعجِبْ من أهلها أحداً . قالت
 أمّ أثمار : فإنه قد أعجبنى . قال العامرى : فأدّى إلينا ثمنه ثم
 خذيه ، لا باركتُ لك الآلهة فيه . وكانت مِمنهم وبين أمّ أثمار مساومة
 طالت والتوت وكثر فيها الأخذ والرد والحذب والشد ، وانتهت
 بشراء أمّ أثمار للغلام بثمان بخس دراهم معدودة . وانصرف العامريون
 وقد ألقوا عن أنفسهم عبئاً ثقيلاً . وعادت أمّ أثمار إلى دارها في
 حى بنى زهرة تجرّ بيدها هذا الغلام الضئيل النحيل الذى مسه الضر
 وبلغ منه الجهد وكاد يقتله الجوع . وكانت كلما مرت بجماعة من
 رجال بنى زهرة أو نسائهم قال لها أولئك أو هؤلاء : ويحك أمّ
 أثمار ! ما هذا الظل الذى تجرّيه ؟ فتجيب : وما أنتم وذاك !
 غلام اشتريته لأومنه من خوف وأطعمه من جوع وأتخذته لى خادماً
 ولابنى رقيقاً .

وبلغت أمّ أثمار بالغلام دارها ، فأطعمته وسقته وكسته حتى
 رضى وحتى ظهر فى وجهه البائس الحزين شىء من رضا وأمن
 وابتسام . ثم آخت بينه وبين ابنها عبد العزى وتركتهما يلعبان ،
 وانصرفت لسانها ، فطوّفت فى دور كثيرة من دور مكة ومعها

أداتها التي كانت تكسب بها قوتها وقوت ابنها ، وكانت خاتنة .
 وكانت تقول في نفسها منذ ذلك اليوم : وَيَحْكُ أُمُّ أُمَّار ! قد كنت
 تعوين نفسك وصبيًّا واحدًا ، فأصبحت تعولين نفسك وصبيين . ثم
 تقول لنفسها : لا تراعى أُمُّ أُمَّار ! فإنَّ هذا الصبي متى استردَّ
 شيئًا من قوة وتقدّمت به السنَّ شيئًا فقد ينفعلك ويُغِلَّ عليك
 من المال ما يقيم أودّه ويُعينك على نائبات الأيام .

وكانت أُمُّ أُمَّار هذه امرأة مُخزّاعية قد أَلَمَتْ بِمَكَّةَ وَتَزَوَّجَتْ
 من بعض أحلاف زُهرة فيها ، وعاشت تسعى بأدائها تلك في دور
 قريش ، وكان الشباب قد انصرم عنها ، وجعلت الشيخوخة تسعى إليها
 مبطّنة ، وكانت كثيرة الصمت ، إلا أن تُثار إلى الكلام ، وهناك
 لا تجد إلى السكوت ولا يجد إليها السكوت سبيلا .

فلما عادت مساء ذلك اليوم وجدت ابنها وغلّامها قد تصرفا
 في فنون اللعب حتى أدركهما بعض الجهد ، فأطعمتهما وسقتهما ،
 ثم أخذت تتحدث إلى الغلام في دعة ورفق . قالت له : ما اسمك
 يا بني ؟ قال الغلام : خَبَّاب . قالت أُمُّ أُمَّار : خَبَّاب ابن مَنْ ؟
 قال الغلام : خَبَّاب بن الأَرْت . ولكنه لم ينطق الراء كما ينطقها
 الصبية حين يكمل خَلْقَهُمْ وتُسْتَقِيمُ أَلْسِنَتُهُمْ ، وإنما انحرف بها بين
 شيء إلى اللام والياء . قالت أُمُّ أُمَّار : خَبَّاب بن الأَرْت ؟ من أي
 أحياء العرب أنت يا بني ؟ قال الغلام : أحياء العرب ! أحياء العرب !
 لا أدري . قالت أُمُّ أُمَّار : أأعجمي أنت ؟ قال الصبي : أعجمي !

أعجبنى ! لا أدرى . قالت أمّ أنمار : وما اسم أمك يا بنى ؟
 هنالك انتحب الصبي حتى رقّ له قلب العجوز ، فكفّت عن
 سؤاله ، وجعلت ترفق به وتكفكف دمه حتى ثاب إليه شيء
 من طمأنينة وهدوء ، ثم آوته إلى مضجعه ، وما زالت تلطف به حتى
 أسلمته إلى النوم ، وقد أرجأت تعرّف قصته إلى غد أو بعد غد .
 وقد حاولت أمّ أنمار من الغد ومن بعد الغد أن تستوفى قصة
 الصبي ، فعرفت منه بعد لأى وبعد نحيب وشهيق ، وبعد رفق
 كثير به وعطف كثير عليه ، أن هؤلاء الرهط من بنى عامر أصابوا
 أسرته على غرة والحيّ خلوف^(١) ، فقاومهم أبوه ما استطاع ، ولكنهم
 قتلوه على أعين امرأته وابنته الفتاة أسماء وابنه هذا الصبي ، ثم
 استاقوا ماله وسبّوا أهله ، وباعوا أمّه في حى من أحياء العرب ،
 وباعوا أخته في حى آخر من أحياء العرب ، وأقبلوا به وبمال أبيه ،
 فباعوا المال في غير جهد ، وكسد الصبي في أيديهم حتى اشترته
 أمّ أنمار . ومنذ ذلك الوقت لم تسرّ أمّ أنمار مع هذا الصبي سيرة
 السيدة مع العبد ، وإنما سارت معه سيرة الأمّ مع ابنها . ومضت
 الشهور والأعوام ، وأنسى الفتى أو كاد ينسى أنه غلام أمّ أنمار ،
 واستيقن الفتى أو كاد يستيقن أنه ابنها وأخو ابنها عبد العزّى .
 وشب وقد وطّن نفسه على أنه تميمى حليف لبنى زهره . ولما استطاع
 العمل أسلمته أمّ أنمار إلى رجل قَيْنٍ تعلّم عنده صناعة الحديد

(١) خلوف : غائبون .

والسلاح ؛ ولم يَنبُف على العشرين من عمره حتى كان قد كسب لأمه
ولنفسه شيئاً من مال ، واشتغل بحانوت يتخذ فيه صناعة الحديد
والسلاح .

وقد نشأ الغلام نشأة أمثاله من هؤلاء الأخلاط الذين يُجلبون
إلى مكة أو تُلقى آباءهم إليها الأقدار . نشأ غلاماً لا يحسّ ثقل
الرق ، ولكنه لا يذوق حلاوة الحرية ، وإنما هو شيء بين ذلك ،
ليس كامل الرق وليس كامل الحرية . يرى من حوله شيوخاً سادة
وشباباً مترفين ؛ ويرى من حوله شيوخاً أذلةً مستضعفين وشباباً
تطمح نفوسهم وتقتصر أيديهم وهمهم وأسبابهم عن بلوغ ما يطمحون
إليه . وقد استقر في نفوس الشيوخ المستضعفين إذعانٌ للقدر واستسلام
للقضاء ، وأظهروا لساداتهم الإكبار وأضمرُوا لهم البغض والشنآن .
واستقر في نفوس الشباب الطامحين غيظ لأتطفأ ناره ، وحسدٌ
لا تُكسرُ حدته ، يرون أنهم ليسوا أقل من الشباب المترفين ذكاء
قلوب وجلاء عقول ونفاذ بصائر ، ولكنهم أقل منهم مالاً وأضعف
منهم قوة وأقصر منهم يداً ، قد أمسكتهم الحياة في حال لا تلائمهم
ولا يلائمنها ، وحيل بينهم وبين الرقي إلى خير منها ، وقضى عليهم
أن يظلوا أتباعاً ، يَحْيَوْنَ أتباعاً ويموتون أتباعاً ، لا أمل لهم في سعة
ولا في دعة ولا في مجد ولا في ارتقاء ؛ فهم كالجنود المشدودة
التي تَعْلُكُ شكايمها ، ويكاد المَرَحُ والنشاط يُخرجها من جلودها .
وكان هؤلاء الشباب إذا خلا بعضهم إلى بعض تحدثوا في حالتهم

تلك فنوناً من الأحاديث ، كانت تنتهى بهم دائماً إلى الحسرة الدفينة
 والغيظ المكظوم . كانوا يقلّبون وجوههم فيما حولهم من القرى الحاضرة ،
 ومن أحياء العرب البادية ، فتقطع بهم الآمال ، وَيُرَدُّون إلى العجز
 واليأس . يرون أن الحياة في مكة خير ما يمكن أن يتاح لهم ولأمثالهم
 من ضروب العيش . في مكة الأمن والسّلم ، والقوت يُكسبُ في غير
 مشقة شاقّة ولا جهد عسير . وليس في مكة مغامرة بالنفس ولا
 بالمال . وفي مكة الموسم الذى يجلب إليها وإلى ما حولها قبائل العرب
 وتجارها من كل فج . فالحياة فيها وادعة خصبة ، ولكنها على ذلك
 مُغلقة إلا على الذين يُتيح لهم الغنى والمولد وشرف النسب أن يفتحوا
 أبوابها ويخرجوا منها إلى آفاق الأرض البعيدة ، ثم يعودون وقد ملؤوا
 أيديهم بالمال ومتّعوا أنفسهم بالرحلة والتنقل في الأقطار . ولكن خبّاباً
 يلقي صديقاً له ذات يوم ، فلا يكاد يتحدث إليه ببعض ما كان
 يدور بينهما من حديث حتى يرى منه ازوراراً عن اليأس وانحرافاً عن
 الحزن وتعلقاً بأمل مشرق بعيد . يقول خباب لصاحبه : ما خَطْبُكَ ؟
 إني لأرى من شأنك شيئاً لم أعهده ، وما أنكرتُ من صديق
 أحداً كما أنكرتُ منذ اليوم . فلا يجيبه صديقه بما تعود أن يُجيبه
 بمثله من رجوع الحديث ، وإنما يتلو عليه : « اقرأ باسم ربك الذى
 خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى
 علّم بالقلم . علّم الإنسان ما لم يعلم . كلا إن الإنسان ليطغى أن
 رآه استغنى . إن إلى ربك الرجعى » .

فلا يكاد خَبَاب يسمع هذا الكلام حتى تجرى في بدنه رعدة تصطك لها أسنانه وركبته . ويتركه صاحبه ساعة ، حتى إذا هدأت رعدته وثاب إليه أمنه واستقر جسمه ، قال لصاحبه : **وَيْحَكَ ! أَعِدْ عَلَىَّ مَا قُلْتَ ؛ فَإِنِّي أَجِدُ لَه فِي قَلْبِي حَرًّا وَلَا يَكَادُ عَقْلِي يَفْهَمُهُ .** ويعيد عليه صاحبه تلك الآيات مرة ومرة ، وإذا خَبَاب يرد على صاحبه فيتلو :

« **كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَيْغَى أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى .** إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرَّجْعَى . » ما هذا القول ؟ إنه ليس من عندك ، أين سمعته ؟ أو ممن سمعته ؟ وهل لي إلى أن أسمع مثله من سبيل ؟ قال صاحبه : نعم ! إن شئت فاصحبني إلى الأمين ؛ فإنه يتلو علينا هذا القول الذي ينتزل عليه من السماء .

وَيُقْبَل أَبُو جَهْل ذات صباح على نادى قومه في المسجد فيقول وهو يضحك ملء شذقيه ويضرب فخذه بيده : يا معشر قريش ، اغدوا إن شئتم على منظر عَجَبٍ . إن ابن الخاتنة قد صبأ ، وإننا محرقوه بالنار ، قبل أن ينتصف النهار .

أقبل مسعود بن غافل مع الحجاج من هذيل ، فنزل في مكة
على عبد بن الحارث بن زُهرة بن كلاب ، وكان بينهما صهر ،
فأقام مسعود عند أصهاره حتى انقضى الموسم . فلما هم بالرجوع
إلى موطنه من أرض هذيل قال لمضيفه : أأست ترى أن عهدك
بأرض هذيل بعيد ، وأن لك عندنا ابنة لها عليك بعض الحق ،
وإن لا بنتك هذه ابنة ليس حقها عليك بأقل من حق أمها ؟ قال
عبد بن الحارث : صدقت ، إن عهدى بأرض هذيل لبعيد ، وإن
لا بنتي هاتين على لحقاً عظيماً ، ولكنك تعلم أن تلك الحرب قد
أفسدت ما بيننا وبين قيس من الأسباب . ومع أن تلك الحرب
قد وضعت أوزارها وجعلت أمورنا تستقيم قليلاً قليلاً ، فإن قريشاً
لا تطرق نجداً إلا متحفظة محتاطة . قال مسعود : ماذا تقول ؟
إنكم معشر قريش أهل الحرم وحماة البيت ، يأمن فيكم الخائف ،
ويأوى إليكم الضائع ، ويجد الملهوف عندكم معونة وغوثاً ،
فما ينبغي أن تكون الأرض كلها إلا حراماً لكم تأمنون فيه من خوف
ولا تعدو عليكم فيه العاديات . قال عبد بن الحارث : قد يكون ذلك
كما قلت ، ولكنك رأيت قيساً تغزونا في أرضنا ، لا ترجو لبيتنا ولا

لحرمنا وقاراً^(١). فمن يؤمن قرشيّاً أن تغوله من قيس وأحلافها غائلة؟ قال مسعود وقد أحفظه ما سمع : وإنك أنت لتقول ذلك ، ولك في هذيل صهر ، وتقول ذلك وابنتك عندي ! قال عبد : وصلتك رحم ! فأني لا أخاف شيئاً في أرض هذيل ، ولا يخاف غيري شيئاً في أرض هذيل ، ولكننا لا نبلغ أرضكم حتى نمرّ بحى من أحياء قيس أو أحلافها . قال مسعود : ويحك : فإن شئت فاجعل بينك وبينى حلفاً يحميك من العاديات في كل أرض تصل إليها يد هذيل ، ويحميني من الغوائل في كل أرض تبلغها يد قریش . قال عبد : قد فعلت .

ولم يعد مسعود إلى أرض هذيل وحده ، وإنما ذهب معه إليها حليفه وذو صهره عبد بن الحارث بن زُهْرَةَ بن كلاب ، فرار عنده ابنته هند ، وقد مات عنها زوجها ابن عبد ودّ ، وزار بنتها أمّ عبد ، وقبّل طفلها الصغير عبد الله بن مسعود . وأقام ما أقام في أرض هذيل ، ثم انحدر إلى مكة ، فلم يطل فيها مقامه حتى أدركه الموت ، ونشأ الصبي الهذليّ من قبّل آبائه ، القرشيّ من قبل أمه ، في أرض هذيل نشأة أمثاله من أهل البادية : حياة أدنى إلى الشظف منها إلى اللين ، وأقرب إلى العسر منها إلى اليسر . ولا يكاد الصبي يبلغ أول الشباب حتى يفقد أباه ، وحتى تضيق به سبل العيش في أرض نجد ، فيهبط مكة ليأوى إلى أخواله من بني زُهْرَةَ ، ويقيم

(١) لا ترجو هنا : لا تخاف . والوقار : العظمة ، أى لا تهاب بيتنا ولا ترهبه .

فيهم ماشاء الله أن يقيم عزيزاً بأخواله وبالحلف الذي كان بينهم وبين أبيه . ولم يكن الشباب من أهل مكة يألّفون حياة البطالة والتّرف إلا أن يكونوا من أبناء السادة والأغنياء ، وإنما كان سبيل الفتي من أوساط الناس في قريش وأحلافها إذا بلغ السن التي يستطيع أن يكسب فيها القوت أن يسعى على رزقه كما يستطيع ، لا يرى بذلك بأساً ولا يجد فيه جُناحاً . وإنما البأس كل البأس والجناح كل الجناح أن يعيش الفتي ككلاً^(١) على آباءه أو أخواله .

وقد سعى عبد الله بن مسعود على رزقه ، واتمسّ القوت من مصادره ، فعرض نفسه على كثير من الناس ، وجرب كثيراً من فنون العمل ؛ ولكن شيئاً واحداً راقه وأعجبه ولأتم طبيعته الهادئة ونفسه الراضية وقلبه المطمئن السام ، فأصبح راعياً لعقبة بن أبي مُعَيْط ، يرعى عليه غنيمات له في ظاهِر مكة ، يغدو بها مع الصبح ويروح بها مع الليل ، وينفق نهاره معها راضياً وادعاً ، قد خلا إلى نفسه ، فأمن غائلة الناس وأمن الناس غوائله .

ولأنه لقي غنيماته تلك ذات يوم ، وإذا رجلان يقفان عليه ، وقد ظهر على وجهيهما شيء من خوف أخذ يذهب شيئاً فشيئاً ، فيستريح الرجلان ساعة مما أدركهما من الجهد ، وكأنهما قد اضطرّرا إلى كثير من العَدُو أمام قوم كانوا يجِدّون في آثارهما . وينظر الفتي إليهما صامتاً لا يقول لهما شيئاً . وما الذي يعنيه من أمرهما وهو

(١) السكل : العالة على غيره .

إنما خلا إلى غنياته تلك ليصرف نفسه عن أمر الناس ويصرف الناس عن أمره ! ولكن أحد الرجلين يسأله فيقول : يا غلام ، هل عندك من لبن تسقيننا فإنا ظمأ ؟ قال الغلام : إني مؤتمن ، وإن أسقيكما . ولو كانت هذه الغنيمات لي لما بخلت عليكما بما ينقع الغلاة وَيُبَلِّ الصدى . فينظر أحد الرجلين إلى صاحبه نظرة مطمئنة كأنه يقول له : لقد أصاب الغلام وأثر البر . ثم يحول الرجل نظره المطمئن إلى الغلام ويقول : فهل عندك من جذعة لم ينز عليها الفحل ؟ قال الغلام : أما هذا فنعم . ثم يمضي غير بعيد ويعود ومعه شاة ، فيعقلها الرجل ذو النظر المطمئن ، ثم يمسح على ضرعها ويدعو بكلام يسمعه الغلام ولا يعقله . وينظر الغلام فإذا الضرع قد حفل ، وإذا الرجل الآخر يأتي صاحبه بصخرة متقكرة ، فيحلب فيها ويسقيه ، ثم يسقى الغلام ، ثم يشرب هو ، ثم يقول للضرع : اقلص ، فيعود الضرع كعهده قبل أن تُعْتَقَلَ الشاة .

هنالك يُبْهَتُ الفتي فيعتقد لسانه فلا يقول شيئاً ، وإنما يقف واجماً ذاهلاً يردّد طرفه الحائر بين الرجلين . ويظل الفتي كذلك ، وقد انصرف عنه ذو النظر المطمئن وصاحبه ومضيا مستأنيين لا ينظران إليه ولا يقولان له شيئاً . ولم يدرِ الفتي أطال وقوفه ذلك الحائر أم قصر ، ولم يدرِ الفتي ماذا صنع ولا فيم فكر بقية يومه ، وإنما يرى نفسه حين تنصرف الشمس إلى مغربها مجررة أذيالها تلك الشاحبة التي تتعلق بأعالى الرُّبِّي ورعوس الجبال ريثما تسحبها الشمس أو

يمحوها الليل — يرى نفسه في تلك الساعة رائحاً إلى مكة وبين يديه غنياته يَهْشُ^(١) عليها بعصاه دون أن يفكر فيها أو يحفل بها ، وقد امتلأت نفسه بخاطر يحسه ولا يتبينه . ثم يرى نفسه وقد آوى الغنيات إلى حظيرتها ، وأقبل يسعى هادئاً مطمئن الخطو ذاهل النفس مع ذلك مُشَرَّد العقل يلتمس عُقْبَةَ بن أبي مُعَيْط ، فيراه قد جلس في صحن داره ومن حوله بنوه وبعض ذوى قرابته ، فيسعى الفتى حتى يقف منه غير بعيد ، ثم يقول : أى أبا الوليد ، أُغِدَّ^(٢) مع غنياتك غيرى من رقيقك وأحلافك ؛ فأبى عن رعيها راغب منذ اليوم . قال عقبة : وَيَحْكُ يا فتى هذيل ! ماذا أنكرت منا أو منها ؟ قال الفتى : لم أنكر منكم ولا منها شيئاً ، ولكنى رغبت عن رعى الغنم . ثم ولى لا يسمع لما كان يقال له ، ولا يحفل بما كان يُظَنُّ به ، ولم يعد إلى بيته ، وإنما عاد إلى ذلك المكان الذى كان يرمى فيه غنياته ، واستحضر في نفسه ذينك الرجلين يعرفهما بعض الروع ويثوب إليهما الهدوء قليلاً قليلاً ، ويستسقيانه فيأبى عليهما . واستحضر في نفسه الشاة الجَدَّةَ التى لا عهد لضرعها باللبن ، ثم رأى ضرعها يحفل ، ورأى اللبن يشعُوبُ منه في تلك الصخرة الجوفاء . ثم استحضر ذوق ذلك اللبن الذى شربه ، فلم يذكر أنه شرب مثله قط . وحاول أن يذكر ذلك الكلام الذى دعا به الرجل ذو

(١) هَش الورق بعصاه : خبطه ليسقط .

(٢) أى اجعل غيرى يغدو مع غنياتك .

النظر المطمئن وهو يمسح ضرع الشاة فلم يذكر منه شيئاً ؛ فهاله ذلك ، ورايه من نفسه كلها ريب ؛ فلم يحرص قط على شيء حرصه على أن يحفظ ذلك الكلام ، وكان عهده بنفسه ألا يسمع شيئاً إلا استقر في قلبه كأنه نُقش فيه نقشاً . فيقول الفتي لنفسه : إن لهذا الرجل ذى النظر المطمئن وصاحبه وكلامه لشأناً . وقد طال مكث الفتي بهذا المكان ساكناً ساكناً يُدير طرفه من حوله ، ثم يقلب طرفه في السماء لا يكاد يفكر في شيء ، أو لا يكاد يحقق شيئاً مما يفكر فيه ، وإنما يرى في نفسه أول الأمر ، ثم من حوله بعد ذلك ، صورة الرجل المطمئن معتقلاً شاته تلك ماسحاً ضرعها متكلماً بذلك الكلام الذى سمعه ولم يعقله ، والذى يحاول أن يذكره فلا يجد إلى ذكره سبيلاً .

وينصرف الفتي عن مكانه ذاك حين تقدم الليل ، ولكنه لا يعود إلى مكة ، وإنما يهيم فيما حوله من الأرض مستأنساً إلى وحشته حريصاً على وحدته ، لا يحس جهداً ولا تعباً ولا حاجة إلى النوم ، ولا يحس ظمأً ولا جوعاً ، وإنما يجد في فمه ذوق اللبن ، ويرى في عينيه صورة ذلك الرجل المطمئن الوداع ، ويسمع في أذنيه صوت ذلك الرجل ممثلاً عذباً يجرى بكلامه ذاك الذى لا يذكره كما يجرى ينبوع الرقيق الصافي بالعذب الزلال . وأنفق الفتي ليلته تلك لم يظله سقف ولم يؤوه مضجع . حتى إذا تجلّت شمس النهار عاد إلى مكة حين يغدو منها الرعيان . ولم يستقر قراره حتى عرف

ذلك الرجل المطمئن وصاحبه ومكانهما ، فيسعى حتى يجد محمداً رسول الله . فإذا دنا منه ألقى النبي إليه نظرة مطمئنة ، وابتسم له ، والفتى يدنو منه حتى يبلغه ، ثم يجلس بين يديه ، ثم يقول له في صوت رقيق يضطرب اضطراباً خفياً : عَلَّمَنِي مِنْ هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي سَمِعْتَهُ مِنْكَ أُمْس . قال النبي مبتسماً له : إِنَّكَ غُلَامٌ مُعَلِّمٌ . ومنذ ذلك الوقت استقر في نفس الفتى أنه لم يُخْلَقْ لنفسه ولا لأهله ولا لغنيات عقبه بن أئى معيط ، وإنما خلق ليلزم محمداً هذا الأمين ، فيسمع منه ويحفظ عنه ويدعو بدعوته .

وكان الفتى خفيفاً نحيفاً دقيق الجسم سريع الحركة عظيم النشاط . فلم يكد يلزم رسول الله أياماً ويسمع منه ويحفظ ما قال حتى رآته قريش في أنحاء مكة متنقلاً بذكر محمد وكلامه يذيعه في كل وجه ، ويفشيه في كل مجلس ، ويتحدث به في كل مكان . وكان لحفته وسرعته مصدر عناء لقريش ، تراه في هذا المكان فلا تكاد تهتم به حتى تنظر فإذا هو قد استخفى وانتقل إلى مكان آخر ، لا يدرون كيف انتقل إليه . فكان المتبعون للنبي وأصحابه يرون هذا الفتى في كل مكان ولا يكادون يظفرون به مع ذلك في أى مكان ؛ حتى قال أبو جهل ذات يوم : ما ضقت بأحد من أصحاب محمد كما أضيق بهذا الفتى الهذلي ، أراه في كل وجه مديعاً دعوة محمد مفسداً بها قلوب الناس ، ولا أجد لى عليه سبيلاً . ولو قد ظفرت به لما أبقيت عليه . قال عتبة

ابن أبي ربيعة : مهلاً أبا الحكم ، لا تبطش بهذا الفتي الهذلي ؛
 فإن زهرة لن تسلمه ، وإنك إن تنله بسوء تؤلِّب هذيلاً كلها على
 قريش وتقطع عليها طريقاً لا تحرص على شيء كما تحرص على
 أمنه وسلمه . قال أبو جهل : هو ذاك ، ولكن أقسم مع ذلك
 لأذيقن هذا الفتي بعض ما يكره إن قدرت عليه . ولم يقدر عليه
 أبو جهل إلا بأخرة حين أذن النبي لأصحابه في الحجرة إلى أرض
 الحبشة . مر أبو جهل ذات يوم غير بعيد من المسجد ، فرأى رهطاً
 من الناس قد تحلقوا حول رجل ضئيل نحيل ، وخيل إليه من بعيد
 أنه يقول لهم وأنهم يسمعون له ؛ فاستأنى أبو جهل في مشيته ، وضاعل
 من شخصه ، وتمسح بالحدران ، ومضى كذلك مستخفياً أو
 كالمستخفى ، حتى فجأ القوم ، فوقف منهم غير بعيد ، يراهم ولا
 يرونه ، وتسمع لصوت ذلك الرجل الضئيل النحيل ، فإذا صوت
 عذب يتلو كلاماً عذباً ، فيصغي أبو جهل بنفسه كلها لسمع
 ما يجري به هذا الصوت العذب من هذا الكلام العذب ، وإذا ابن
 مسعود يتلو على من حوله هذه الآيات الرائع من سورة الفرقان :
 « عِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ
 الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا . وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا .
 وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا
 كَانَ غَرَامًا . إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا . وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ
 يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا . وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ

مَعَ اللَّهِ إِلَّا آخِرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ
 وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا . إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا
 صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
 رَحِيمًا . وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا .
 وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا
 وكان أبو جهل يسمع لهذا الذكر فيخفق له قلبه وتخشع له نفسه ،
 ولو قد أرسل طبعه على سجيته لقال كما سمع بعض أولئك الرهط
 يقول لعبد الله بن مسعود في صوت تحتبس فيه الزفرات : إني والله
 لأُحِبُّ أَنْ أَكُونَ مِنْ هَؤُلَاءِ . ولكن أبا جهل لا يُرسل طبعه
 على سجيته ، وإنما يدعو حسده وكبرياه وأنفته ، ثم ينصب
 على أولئك الرهط كما ينصب الصقر على فريسته وهو يصيح :
 بؤساً لكم من رهط سوء ! ما رأيت كاليوم جراءة . إنكم لتجتمعون
 حول هذا الرجل وتستمعون له ، وليست أندية قريش منكم ببعيد .
 فما يمنعكم أن تقتحموا علينا المسجد وأن تتحلقوا فيه ! ولم يك
 أولئك الرهط يرون ذلك الشخص البشع ، ويسمعون ذلك الصوت
 المنكر حتى تفرقوا سراعاً . وظل ابن مسعود قائماً مكانه لا يريم .
 فيدنو منه أبو جهل مُغَضَّباً وهو يقول : ويلك يا ابن أمّ عبد !
 ما تزال تُفسد علينا أحلافنا ورقيقنا ، وما أراك منتهياً حتى تصيبك
 مني بائقة . وهمّ ابن مسعود أن يرد عليه مقالته ، ولكن أبا جهل

لا يمهله ، وإنما يعلوه بالقوس فيشجه . وقد أخذ الدم يتحدّر على وجهه ، ولكنه لم يحفل بذلك ، وإنما يسرع في خفة إلى أبي جهل وهو يقول : فأما إذ فعلت ما فعلت فخذها وأنا فتي هذيل ! ثم يدفع في صدر أبي جهل بإحدى يديه ويلطم وجهه بيده الأخرى ، ثم ينصرف عنه مستأنياً متمهلاً ، ويتركه قائماً واجماً قد أخذه الذهول ، لم يكن يُقدّر أن حليفاً من أحلاف قريش يستطيع أن يدفع في صدره ويلطم حرّ وجهه . ثم تثوب إلى أبي جهل نفسه فيصيح بأبن مسعود : لن تُفلت بها يا راعي الغنم ! قال ابن مسعود : ولن تُفلت بما فعلت يا عدوّ الله !

ويمضى كلا الرجلين إلى أصحابه . فأما ابن مسعود فيلقى رهطاً من أصحاب النبي ، فيقول لهم وعلى ثغره ابتسامة وفي عينيه دمتان تترقرقان : لا مُقام لي بمكة منذ اليوم ؛ فقد لطمت وجه أبي جهل . والله إني بالهجرة لفرح ، وإني بها لحزون : فيها ثواب الله ومغفرته ، وفيها فراق رسول الله دهرًا لا أدرى أيقصر أم يطول . وأما أبو جهل فيعود إلى نادى قومه وقد انكسرت نفسه واستخذى ضميره ، ولكنه على ذلك يُظهر الغضب والكبرياء ويقول لأهل ناديه : وَيَحْكُم يا بني مخزوم ! إن كانت لكم بقية من عزة فأمكنوني من ابن أم عبد ؛ فإنه قد أتى إلى ذنباً لا يغسله إلا دمه . ويلتمس القوم عبد الله بن مسعود في مكة وما حولها فلا يظفرون به ولا يقدرّون عليه ، ولا يرى أبو جهل خصمته إلا يوم بدر .

١٣

أقبل سلام بن حبيب القُرظي من الشام ، كعهده في كل عام ، بتجارة عظيمة فيها فنون من العروض وضروب من المتاع ، بعضه مما تخرج الشام ، وبعضه مما يصنع أهل الجزيرة ، وبعضه مما تحمله الروم إلى دمشق وبُصْرَى وتبيعه من قوافل العرب واليهود ليحملوه إلى الأرض البعيدة التي لا تصل إليها يد قيصر ولا يبلغها سلطانها في نجد والحجاز وفي تهامة واليمن . ولم يكند سلام بن حبيب يستقر في بني قُريظة ويريح نفسه من سفر شاق طويل ، حتى عرض متاعه ذاك المختلف للناس ؛ فأقبل عليه أهل يثرب من الأوس والخزرج ، وأقبل عليه من حول يثرب من يهود ينظرون ويشترون . ولم تمض أيام حتى كان سلام بن حبيب قد باع تجارته وأفاد منها مالا كثيراً . ولولا هذا الصبي الذي عرضه سلام على العرب فرغبوا عنه ، وعلى اليهود فزهدوا فيه ، لرضيت نفس سلام كل الرضا ، ولأنفق الأشهر المقبلة مطمئناً مغتبطاً مجوِّلاً في أحياء يثرب مرسلًا رقيقه وأحلافه فيما حول يثرب من أحياء العرب واليهود في أعماق البادية ، يجلبون له من المتاع الذي يحمله إلى الشام متى أقبل فصل الرحلة إلى الشام . ولكن هذا الصبي كان غصّة في حلقة وحسرة

في قلبه ، قد اشتراه في بُصْرَى من بعض الكلبيين بثمان بجنس زهيد ،
وقدّر في نفسه أنه سيبيعه من بعض أهل يثرب فيربح في ثمنه ذاك
الذي أداه مثليه أو أمثاله . ولكن أهل يثرب من العرب واليهود
لم يعهدوا سلاماً جالباً للرفيق أو مُتجراً فيه . فلما رأوه يعرض عليهم
هذا الصبي ويلج في عرضه ويرغب في شرائه ، أنكروا منه ذلك وظنوا
به الظنون . وقال قائلهم : إنما اشترى سلام هذا الغلام لنفسه ،
فلا نأمن أن يكون قد رأى فيه من العيب أو الآفة ما زهده فيه ،
فهو يبيعنا ما ليس له فيه أرب . وكان الصبي بادي السقم
ظاهر الضر ، كأنه قد لقي من الذين اتجروا فيه شراً وُنكراً .
ولم يكن يُحسن العربية ، بل لم يكن يستطيع أن يُفصح عن ذات
نفسه . ولم يكن يُحسن الرومية بل لم يكن ينطق منها حرفاً ، وإنما
كان إذا كلمه سيده أو غير سيده من الناس التوى لسانه بألفاظ
فارسية لا يفهمها عنه أحد . وكان سلام يزعم للناس أن هذا الصبي
ذكي الفؤاد صناع اليد موفور النشاط إذا صلحت حاله ووجد
من الطعام ما يقيم أوده . وكان يزعم لهم أنه سليل أسرة فارسية شريفة
أقبلت من إصطخر حتى استقرت في الأبلّة ، فملك أرضاً واسعة
وزارعت فيها النبط ، وملك تجارة عريضة كانت تُصَرّفها في
أطراف العراق . فإذا سئل من أنباء هذه الأسرة عن أكثر من ذلك
لم يُحِرْ جواباً^(١) ، وإنما يقول : زعم لي من باعني هذا الصبي أن العرب

(١) لم يرد جواباً .

اختطفوه حين أغاروا مع الروم على الأبله ، فباعوه من بني كلب ،
وتعرض به بنو كلب في بُصْرَى يريدون أن يبيعوه لبعض تجار
العرب أو اليهود . وقد رأيته فرق له قلبي ومالت إليه نفسي ،
وقدّرت أن سيكون له شأن أى شأن ، فاشتريته فيما اشتريت من
المتاع والعروض .

هنالك كان الناس يقولون له : فلم لا تُمسكه عليك إذن ؟
فيقول : إن ما أنفقت من المال فيه أحب إلىّ وأثر عندي منه .
وماذا أصنع بصبي لا أحسن القيام عليه ولا يُحسن هو أن يقوم
على نفسه ، وليس لى أهل أكله إليهم ! والصبي مع ذلك ذكى
القلب صنّاع اليد موفور النشاط إن صلحت حاله وأصاب من الطعام
ما يقيم أوده . أنظروا إلى عينيه كيف تدوران ولا تكادان تستقران
على شيء . إنه سريع الحس يحطف ما يرى دون أن يُشبهه^(١) .
وانظروا إليهما كيف تتوقدان كأنهما جذوتان . ولكن الناس
كانوا يسمعون ويضحكون وينصرفون ويتركون سلاماً وفي قلبه
حسرة على ما أنفق من مال وعلى ما كان يرجو من ربح . وتمرُّ ثبّيته
بنت يعار الأوسية بسلام ذات ضحى وهو يعرض صبيه هذا في
بعض أسواق يثرب ، فلا تكاد تنظر إلى الصبي حتى ترجمه ، ثم
لا تكاد تُطيل النظر إليه حتى تقع في قلبها الرغبة في شرائه . قالت
ثبّيته : ما اسم صبيك هذا يا ابن حبير ؟ قال سلام : زعم من

(١) دون أن يشبهه : دون أن يعرفه حق المعرفة .

باعه لى من بنى كلب أن اسمه سالم . قالت : سالم ابن من ؟
قال سلام : لا أدري ! ولكنى اشتريته من كلبى يسمى مَعْقِلًا ،
وزعم لى أن أسرته أسرة شريفة أقبلت . . . قالت ثبثة : أقبلت
من إصطخر فنزلت الأبله وزارعت النبط وصرّفت تجارتها فى أطراف
العراق ، قد حفظنا ذلك عن ظهر قلب ، فإنى له مشرية ، فبكم
تبيعه منى ؟ قال سلام وقد ابتسم قلبه ورضيت نفسه ، ولكنه
استبقى فى وجهه الجلد والحزم : فإنى لا أريد إلا ما أديت من ثمن
وما أنفقت عليه منذ اشتريته . وتتصل المساومة بينها وبينه ، وتعود
إلى دارها بالصبي وقد ربح اليهودى فأحسن الربح ، وربحت هى
بشراء هذا الصبي ربحاً لا يقوم بالدرهم ولا بالدنانير .

ذلك أنها لم تشتره متجرة ولا مبتغية كسباً ، وإنما أثرت بشرائه
الخير والبر والمعروف ، لم تُرد إلى شىء آخر . وكانت تقول لنفسها
فى نفسها وهى عائدة بالصبي إلى دارها : بُعْدًا لهذه الحياة التى لا
يرحم الإنسان فيها الإنسان ، ولا يرأف القوى فيها بالضعيف ، ولا
تَرِقُ فيها القلوب للأُمّ حين تفقد صبيها ، والصبي حين ينشأ
لا يعرف لنفسه أمّاً ولا أباً ولا فصيلة يأوى إليها . وكانت تقول لنفسها
فى نفسها وهى عائدة بالصبي إلى دارها : لو أن لى صبيّاً مثله فعدا
عليه العادون ومضوا به فى غير مذهب من الأرض كيف كنت
ألقى ذلك ! وكيف كنت أحتمله أو أصبر عليه ! وهل كنت
أسلو عن صبي آخر الرهر ! هيهات ! لو كان لى صبي مثله وعدا

عليه العادون وذهبوا به في غير مذهب من الأرض لذكرته مصبحة
ومسية ، ولذكرته يقظى ونائمة ، ولتبعته نفسى وذهبت في تصوّر
حاله المذاهب ، ولما اطمأنت للعيش ولا تعمّت بالحياة ولا استمتعت
بطيبات هذه الدنيا . وكانت ترى أم الصبي وقد انتزع منها ابنها
وهي تشهد انتزاعه ، أو اختطف ابنها وهي لا ترى اختطافه ، وكانت
ترى توكّله تلك الأمّ وتفرّجها وحسرتها التي لا تخدم ولوعها
التي لا تنطفئ ودموعها التي لا تغيض . وكانت تقول لنفسها في نفسها
وهي عائدة بالصنى إلى دارها : هذا غلام قد اختطف من ملك
كسرى ، لم يستطع جند كسرى أن يحموه ولا أن يرُدّوا عنه
العاديات ، فكيف بنا نحن في يثرب ، هذه المدينة الخائفة التي
يحيط بها اليهود والأعراب من جميع أقطارها ، والتي يسئل بعض
أهلها السيف على بعض ، والتي لا يأمن أهلها أن تدور عليهم
دائرة ، أو تنوبهم نائبة ، أو يُيلمّ بهم خطبٌ من الخطوب ! فلما
بلغت الدار واستقرت فيها ، وعينت بالصبي حتى آمن بعد خوف
وأُنس بعد وحشة وطعم بعد جوع ، قالت لنفسها في نفسها : هيات
أن أتخذ الأزواج أو أن يكون لى من الولد من يصيبه مثل ما أصاب
هذا الصبي ، ومن أذوق فيه من الحزن والشكل مثل ما ذاق في
هذا الصبي أمه تلك الفارسية ونساء أمثالها كثير . ولو استجابت
الحياة لثبته لأنفقت أيامها معنية بهذا الصبي الفارسي ، ولاتخذته
لنفسها ولداً أو شيئاً يشبه الولد . ولكن الناس يقدرون ويدبرون ،

والأيام تجرى على غير ما قدروا ودبروا .

فقد عُتيت ثُبَيْتة بِسالم حتى ربا جسمه ونما عقله وأصبح غلاماً ذكياً القلب سريع الحس حديد اللسان كما قدّر اليهودى ، أو أكثر مما قدّر . وكانت ثُبَيْتة له محبة وبه مغتبطة وعنه راضية . وقد خطبها الرجال من الأوس والخزرج ومن أشراف البادية حول يثرب ، فامتنعت عليهم ، واعتلت على أهلها فى ذلك حتى أعيتم . ولكن وفد قريش يملون يثرب مُنْصَرَفَتِهِمْ من الشام ذات عام ، فيمكنون فيها أياماً . ويسمع أبو حذيفة هُشَيْم بن عُتْبَةَ بن ربيعة بحديث ثُبَيْتة هذه وقصة غلامها ذاك ، فيعجبه ما يسمع ، ثم يحب أن يتريد من أخبارها فَيُحِلِّمُ بقومها ويقول لهم ويسمع منهم ، فتقع ثُبَيْتة من نفسه موقعاً حسناً ، مع أنه لم يرها ولم يسمع لها ، وإنما سمع عنها فرضى . وإذا هو يخطب هذه الفتاة الأبية ، فتمتنع عليه أول الأمر ، حتى إذا علمت بمكانه من قريش وبأنه من أشرفائها وذوى المنزل الرفيعة فيها ، وبأنه من أصحاب البيت وأهل الحرم الذى رُدَّ عنه أصحاب القيل ، والذى لا يعدو عليه إلا الفجرة الآثمون، شكّت يوماً ويوماً ، ثم أصبحت مستجيبة لخطبة هذا المكي . ويعود أبو حذيفة بأهله وبسالم إلى مكة فى وفد قريش ، فلا يكاد يستقر فيها حتى ينكر من أمرها بعض الشيء . لقد أصبح فعدا على أندية قريش ، ثم أمسى فراح إلى أندية قريش ، ولكنه يعرف من أمر هذه الأندية كثيراً ، وينكر من أمرها كثيراً . تريد

نفسه أن تطمئن وأن تأمن وأن ترضى كما تعودت من قبل ، ولكنها لا تجد إلى الطمأنينة ولا إلى الأمن ولا إلى الرضا سبيلا . يحس أبو حذيفة كأن شيئاً ينقص هذه الأندية ، وكأن حدثاً قد حدث في مكة لا يدري أيسير هو أم خطير ، ولكن شيئاً قد حدث فغير من أمر قومه تغييراً يحسه ولا يحققه . ثم يلتبس بعض صديقه في أندية قريش فلا يجدهم . يسأل : أين عثمان بن عفان الأموى ؟ وأين طلحة بن عبيدالله التيمي ؟ وأين فلان وفلان من ذوى مودته ؟ فلا يجيبه قومه بالتصريح ، وإنما يؤثر بعضهم الصمت ، ويذهب بعضهم مذهب التورية ، ويلوى بعضهم ألسنتهم بأحاديث لا تُفصح ولا تُبين . ويرى أبو حذيفة ويسمع ، فيبعد الأمد بينه وبين الطمأنينة والأمن والرضا . ثم يصبح ذات يوم وقد انجلت له بصيرته ، ووضح له وجه الحزم من أمره . إن صديقه أولئك بمكة لم يفارقوها ولم يرحوا أرض الحرم ، فما له يسأل عنهم ولا يُعلم بهم ! ولا يكاد هذا الخاطر يخطر له حتى يقصد قصد فلان أو فلان من أولئك الصديق .

وقد ألمّ بعثمان بن عفان وكان له خليلا على ما كان بينهما من تفاوت في السن : كان عثمان قد تخطى الأربعين أو كاد ، وكان أبو حذيفة لم يبلغ الثلاثين بعد ، ولكن الود كان بينهما قديماً متيناً ، زادته الصحبة في الأسفار قوة وأيداً . فلما بلغ أبو حذيفة دار عثمان ودخل عليه تلقاه صديقه بما تعود أن يتلقاه به من البشر

والبشاشة ومن الرفق واللين . ولكن أبا حذيفة آنس من صديقه على ذلك كله شيئاً من تحفظ واحتشام . قال أبو حذيفة : لقد التمسك أبا عمرو في أندية قريش منذ عاد الوفد إلى مكة فلم أجذك ، فما عسى أن يكون قد حبسك عن قومك ؟ قال عثمان : لم أنشط لهذه الأندية ولا لما يدور فيها من حديث . قال أبو حذيفة : فهل أنكرت من قومك شيئاً ؟ وهنا سكت عثمان ولم يُجب . فأعاد عليه أبو حذيفة مقالته ، فأمعن عثمان في الصمت . قال أبو حذيفة : إن لك أبا عمرو لشأناً ولا واللات والعزى . ولكن عثمان لم يكفد يسمع قسمة هذا حتى لوى وجهه . وينظر أبو حذيفة فإذا وجه صاحبه قد اربدّ وظهر فيه غضبٌ لم يألفه منه قط . قال أبو حذيفة : وَيَحْكُ أبا عمرو ! إنك لتعرف ما بينك وبينى من الود ، وإنك لى لخليل وفى أمين ، فأظهرنى على ذات نفسك . قال فى عثمان صوت وادع لين : فإن شئت أن تستبقي ما بيننا من الود فلا تذكر اللات والعزى وهذه الآلهة التى لا تغنى عنكم شيئاً . هنالك وجم أبو حذيفة وجمة قصيرة ، ثم قال : وَيَحْكُ أبا عمرو ! فإنك إذن قد صبت ؟ قال عثمان فى صوت أشد دعة وأعظم ليناً : لم أصبُ أبا حذيفة ، وإنما اهتديت . إنك فتى حازم رشيد لم تتقدم بك السن بعد ، ولكنك قد رأيت الدنيا وطوّفت فى أقطار الأرض وبلوت أخبار الناس وحرّبت الأحداث والخطوب ، أفترى من الرشد أن يؤمن مثلك ومثلى لأنصاب من خشب وصخر صورها الناس بأيديهم ، ويستطيع

من شاء منهم أن يجعلها جُذْأَذاً ؟ قال أبو حذيفة : ما أراك أبا عمرو إلا رشيداً ، ولكنى لم أفكر فى هذه الأشياء قط ، وإنما وجدت قومنا يعبدون هذه الأنصاب فصنعت صنيعهم . قال عثمان : وإذا أسفر الهدى وحصحص الحق ؟ قال أبو حذيفة : فقد وجب علينا أن نهتدى ونَتَّبِعَ الحق ، متى تستصحبنى إلى محمد ؟ قال عثمان : الآن إن شئت .

وأسمى أبو حذيفة مسلماً ، ودخل بإسلامه على ثُبَيْتة ؛ فلم تكذ تسمع له حتى آمنت بمحمد وما جاء به . وسمع الغلام سالم حديثهما فالت إليه نفسه ، وإذا هو يؤمن كما آمنا . ولم يتقدم الليل حتى زادت بيوت الإسلام فى مكة بيتاً .

وتمضى أيام قليلة وإذا ثُبَيْتة تعلم أن محمداً يدعو إلى إعتاق الرقيق ، ويعد الذين يَتُفَكِّونَ الرقاب مغفرة من الله ورحمة ورضواناً . فتدعو إليها غلامها ذاك الفارسى وتقول له : إذهب سالم فإنى قد سيبلك الله عزّ وجلّ ، فوال من شئت . قال سالم لأبى حذيفة : فهل لك فى أن تكون لى ولياً ؟ قال أبو حذيفة : هيات ! لن أتخذك مولى ، وإنما أنت ابن لى منذ اليوم .

دخل عبد الله بن سَهيل بن عمرو على أخته سَهلة بنت
سَهيل زائراً عند زوجها أبي حذيفة بن عُبَبة بن ربيعة ، فرأى
منها إقبالا عليه أكثر مما تعود أن يرى منها منذ حين ، ووقع ذلك
من نفسه موقعاً حسناً ، فجعل يحدث أخته بما شاء من أحاديث
قومه يريد أن يُسرّها ويُفكّكها : يعث بالشيوخ وذوى الأسنان
من قريش طوراً ، ويتندرّ بمرح الشباب من قريش طوراً آخر ،
وأخته تسمع له فتضحك وتعجب ، وَهَمَّ أن تشاركه في بعض
حديثه وأن تذكر معه أيام الصبا ، ولكنها لا تلبث أن تكفّ
نفسها عن ذلك وأن تُؤثر الصمت ، وتدعوه إلى أن يقول . وقد
لاحظ عبد الله أن أخته على نشاطها له وإقبالها عليه ربما عرض
لها شيء من ذهول بين حين وحين ، كأنما كانت تغيب عنه ثم
تُوب إليه .

وقد أنكر الفتي من أخته نشاطها وذهولها جميعاً ، ولكنه أسرّ
ذلك في نفسه ولم يبده لها ، ومضى فيما كان يسوق من حديث ،
ضاحكاً مضحكاً ؛ حتى إذا أنفق معها ساعة غير قصيرة همّ
أن ينصرف . وقامت أخته تريد أن تسعى معه مشيعة إلى فناء الدار .

ولكن عبد الله ينحنى على أخته يريد أن أن يضمها إليه وأن
يَقْبَلُهَا ، فتذعُرُ سهلة وتراجع شيئاً . وينظر إليها عبد الله فى
شئ من حيرة ودهش ، وتنظر هى إلى عبد الله فى دهش وحيرة .
ثم يعود عبد الله إلى مكانه فيجلس ، وتظل سهلة قائمة واجمة كأنها
لا تدرى ماذا تصنع ولا تعرف كيف تقول . قال عبد الله بعد
هنيهة : إن أمرك لعجيب منذ اليوم يا سهلة ! أليس قد أزعمت
الهجرة من غد ؟ قالت سهلة وقد ظهر عليها الروح : أى هجرة ؟
هنالك أغرق عبد الله فى الضحك ، ثم قال : ما رأيت كالיום فتاة
غرة تريد أن تمكر بأخيها . إن هجرة أصحاب محمد إلى أرض الحبشة
ليست سرّاً مكتوماً ، وإنما هو حديث الناس فى مجالسهم وحديث
الملأ من قریش فى أنديةهم ، وإن قریشاً لو شاءت لأخذت على
أصحاب محمد طرق هجرتهم ، ولكنها لا تشاء ، ولعلها لا تكره هذه
الهجرة ؛ فقد جعلت قریش تسأم محمداً وأصحابه ، وتسأم الكيد لهم
والمكر بهم والإلحاح على المستضعفين منهم بالفتنة والعذاب . وقد
فرحت قریش بهجرتهم هذه ، وقال الملأ منها شرّاً يُصرفُ عنا
وراحة تُهدى إلينا . وإن أعين قریش ليقظة ساهرة على محمد
ونفر من أصحابه ؛ فهؤلاء رهائن قریش لا تُتخلى بينهم وبين الطريق
إن أرادوا أن يدفَعوا أنفسهم إلى الطريق . فأما المستضعفون وأشباه
المستضعفين فليس لقریش فيهم آربٌ . وكانت سهلة تسمع لهذا
الحديث وآيات الروح والحزن والرضا تختلف على وجهها ، وهى

مع ذلك قائمة تسمع من أخيها ولا ترد عليه جواباً . قال عبد الله :
وقد ظننت إذن وظن زوجك أن قريشاً عنكما غافلة . هيهات !
إن عتبة والوليد بن عتبة ليعلمان من أمر أبي حذيفة مثل ما يعلم
سهيل وعبد الله من أمر سهلة ؛ وإن قريشاً لتعلم من أمركما مثل
ما يعلم أبواكما ، ولكن قريشاً لا تحبسكما لأن لها في أبويكما وأخويكما
أرباباً . ولكننا نحن لا نجبسكما أيضاً ؛ لأننا نُؤثركما بالحب في أعماق
نفوسنا ودخائل قلوبنا ، ونكره لكما حياة التستر والاستخفاء هذه
التي تحتملانها في مشقة أى مشقة وعناء أى عناء ، ولا نصيق بأن
تجدا في هجرتكما هذه أمناء بعد خوف وفرجاً بعد حرج . ولولا
أن تقول قريش : ضعف سهيل فلم يُطِيق على فراق ابنته صبراً
لما زرتك الآن وحدى ولزارك أبوك فنظر إليك قبل فراق ليس
يدرى ولست تدرين أيطول أم يقصر ، ولكنه يرى كما أنك ترين
أوله ، ولا يعرف كما أنك لا تعرفين آخره . وليس يعينى ما تقول
قريش في ، وعسى أن أجد في مقت قريش لى رضا وفى استخفافها
بى جبوراً . أسمع الآن عني ؟ قالت سهلة : ألم تر أنك منذ
دخلت على إنما تتحدث وحدك وأنا أسمع ولا أرد عليك ؟ قال
عبد الله : بلى ! وهذا بعض ما أثار فى نفسى ما ترين من العجب .
ولكنى لم أفهم هذا الذعر الذى اشتعل عليك حين أردت أن أضمك
وأن أقبلك مُودّعاً . قالت سهلة ولم تستطع أن تمنع ابتسامه حلوة
ارتسمت على ثغرها وضحكة عذبة جرت فى صوتها : فإنك مُشرك ،

وما أحبّ مسّ المشركين . قال عبد الله وقد ظهر في وجهه الحزم :
 أوقد بلغ بكم حب محمد والاستجابة لدينه أن تصدّوا عن
 إخوانكم ؟ قالت سهلة وقد زالت ابتسامتها عن ثغرها وجرى في صوتها
 حزم صارم لم يثبت له قلب الفتي وإنما اتصل له خفقانه : لو
 قد أحببت محمداً واستجبت لدينه لعرفت أن الصد عن الإخوان
 والآباء في سبيله ليس شيئاً . ^(١) تعلم يا أخي أنا نحب الله ورسوله
 أكثر مما نحب آباءنا وأمّهاتنا وإخواننا ، وأكثر مما نحب الدنيا كلها
 وما فيها من كل شيء ، وأكثر مما نحب أنفسنا . ولقد حدثني آنفاً
 بأن قريشاً راضية عن هجرتنا ، فتعلّم أنا نحن عنها غير راضين .
 ولولا أن أذن لنا فيها محمد ودعانا إليها لآثرنا الفتنة والعذاب والموت
 قريباً منه على الدعة والسعة والراحة والروح والأمن والرضا بعيداً
 عنه في أي قطر من أقطار الأرض . قال عبد الله وقد أطرق مفكراً :
 هو ذاك إذن ! محمد أحبّ إليكم من آبائكم وأمّهاتكم وإخوانكم
 ومن الدنيا كلها وما فيها من كل شيء ! ومحمد أحبّ إليكم من
 أنفسكم ! قالت سهلة : ولو قد أحببت محمداً كما نحبه لعرف
 قلبك الحب الذي يُعطى ولا يريد أن يأخذ ، والذي لا يبتغي لنفسه
 ثمناً من لذة الجسم أو نعيم النفس . ويدخل أبو حذيفة فيرى
 عبد الله مطرقاً مغرقاً في التفكير ، ويرى امرأته سهلة قائمة تنظر إليه
 نظرات حازمة قوية ولكن فيها شيئاً من أمل وشيئاً من حنان . فينظر

أبو حذيفة إلى امرأته ثم ينظر إلى عبد الله ثم يقول في صوت عميق :
هل تنبئيني يا سهلة بأن الله قد أنزل السكينة على قلب أخيك ؟
وَهَمَّتْ سهلة أن تجيب ، ولكن عبد الله يرفع رأسه ويسبق أخته
إلى الحديث فيقول : السكينة ! السكينة ! . . . ما عسى أن تكون
هذه السكينة ؟ إن لكم لألفاظاً تديرونها في أفواهكم وتقرعون بها
آذاننا ، ولكننا لا نحصل لها معنى . هذه تزعم أنكم تحبون محمداً
أكثر مما تحبون آباءكم وإخوانكم وأنفسكم ، وأنت تسألها هل أنزل
الله على قلبي السكينة . ما عسى أن تكون هذه السكينة ؟ وما عسى
أن يكون محمد قد صنع بقلوبكم حتى استأثر بها من دون آبائكم
وإخوانكم وأنفسكم ؟ قال أبو حذيفة في صوت رقيق : لم يصنع
محمد بقلوبنا إلا أنه نقّاهم من الغي ، وجلاها من الضلال ، واستزل
عليها السكينة التي ملأها أماناً ورضاً وثقة وأملاً ، وحالت بينها وبين
الخوف والشك والقنوط . ثم يتلو قول الله عز وجل : « إن الذين
لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين
هم عن آياتنا غافلون . أولئك ما أولاهم النار بما كانوا يكسبون . »
ولا يكاد الفتي يسمع هاتين الآيتين حتى تأخذه رعدة عنيفة
ويتفصّد جبينه عرقاً . ويمضي أبو حذيفة في تلاوته فيقرأ : « إن
الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من
تحتهم الأنهار في جنّات النعيم . دعواهم فيها سُبْحَاتُكَ اللَّهُمَّ
وتَحْسِيتهم فيها سلامٌ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين . »

ولا يبلغ أبو حذيفة آخر هذه الآيات حتى يهدأ رُوع الفتي
ويثوب إلى قلبه الأمن ، وينظر إلى أبي حذيفة مبتسماً ، ويقول
في صوت تشيع فيه دُعابة حلوة : وَيُحْك : إني أحسن كَأَن
سَكَيْتُكُمْ هذه تسعى إلى قلبي . أَذَاهَبُ أَنْتَ يَا أَبَا حُذَيْفَةَ إِلَى
مُحَمَّدٍ لِأَتَلْقَاهَا مِنْهُ ؟

وَأَمْسَى عَبْدُ اللَّهِ مُسَلِّماً قَدْ عَادَ إِلَى أُخْتِهِ وَجَلَسَ إِلَيْهَا وَإِلَى
أَبِي حُذَيْفَةَ وَسَلَامٌ يَسْمَعُ مِنْهُمُ الْقُرْآنَ . تَقُولُ لَهُ سَهْلَةُ مُنْصَرَفَةً عَنْهَا
حِينَ تَقْدَمُ اللَّيْلُ : أُمُهَاجِرٌ أَنْتَ مَعَنَا يَا أَخِي ؟ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ :
عَزِيزٌ عَلَيَّ أَنْ تَنَائَى بِكُمْ الدَّارُ ، وَلَكِنِّي لَمْ أَسْمَعْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ الْقُرْآنَ
وَحْدَيْهِ إِلَّا الْيَوْمَ ، وَإِنِّي لِأَوْثَرُ أَنْ أَلْزِمَهُ مَا وَسَعَنِي لِرُومِهِ ، فَادْهَبُوا
رَاشِدِينَ .

وَأَصْبَحَ أَبُو حُذَيْفَةَ فَانْطَلَقَ بِامْرَأَتِهِ وَابْنِهِ سَالِمَ فِيمَنْ انْطَلَقَ
إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . حَتَّى إِذَا كَانَتِ الْهَجْرَةُ الثَّانِيَةَ إِلَى
أَرْضِ الْحَبَشَةِ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَهِيلٍ أَحَدَ الْمَشَارِكِينَ فِيهَا . وَقَدْ جَلَسَ
سَهِيلٌ فِي دَارِهِ مُحْزُونًا كَثِيبًا ، وَافْتَقَدْتَهُ قَرِيشٌ حِينَ رَأَتْ تَخْلُفَهُ
عَنْ أُنْدِيَّتِهَا أَيَّامًا ، فَأَقْبَلَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَأَبُو جَهْلٌ
عُمَرُو بْنُ هِشَامٍ فَاسْتَأْذَنُوا عَلَيْهِ . وَلَوْ قَدْ أَطَاعَ نَفْسَهُ لَمَنْعَهُمُ الْإِذْنَ ،
وَلَكِنْ لِلْسَادَةِ مِنْ قَرِيشٍ حَقٌّ لَا يُلْتَوَى بِهَا . فَيَدْخُلُ الْقَوْمُ عَلَى سَهِيلٍ ،
وَلَا يَكَادُونَ يَتَحَدَّثُونَ إِلَيْهِ حَتَّى يَرَوْا حَزْنَهُ وَضِيقَ صَدْرِهِ . يَقُولُ
عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ : وَيُحْك أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ! لَقَدْ هَاجَرَ ابْنِي فَمَا سَاعَتِي

هجرته . فيقول سهيل : وهل جرّ علينا الشرّ كله إلا ابنك !
 لم يكفِه أن يُضَيِّبُ ابنتي حتى أصبأ أخاها وانصرف بهما جميعاً إلى
 أرض النجاشي . قال أبو جهل : لو عرفت قريش كيف تؤدّب
 سفهاءها لما أصابكما ما تريان ، ولو استجابت لي قريش لاجتشت
 الشجرة من أصلها . فيقول شيبة بن ربيعة : على رسلك أبا الحكم !
 أما هذه فلم يأت إبانها بعد .

وما يزال القوم بسهيل حتى يخرجوه ويردوه إلى ما أليف منهم
 وألفوا منه . ويمضي من الأيام والأشهر ما شاء الله أن يمضي ،
 وهؤلاء نفر من مهاجرة الحبشة يعودون إلى مكة ، منهم من يعلن
 عودته ومنهم من يستخفي بها . وعاد في هؤلاء نفر عبد الله بن
 سهيل ؛ فيلقاه أبوه أحسن لقاء ، ويتحدث إليه حديث البشاشة
 والبشر ، والفتى متحفّظ متثأّم ، كأنه يرى في الاستماع لحديث
 أبيه بأساً . ولكن سهيلاً يضرب إحدى يديه بالأخرى ، فما هي إلا
 أن يستجيب له أعبدُ شداد يُحيطون بعبد الله ، فيوثقونه ثم يحملونه
 سجيناً إلى أعماق الدار ، ومنذ اليوم يُدَيِّقُه أبوه من الفتنة شيئاً عظيماً .

لم تعرف مكة في تاريخها الطويل القديم يوماً كذلك اليوم المشهود ،
وإن كانت قد عرفت بعده أياماً مشهودة ليست أقل منه شدة
وُنكراً .

كانت بلداً آمناً ، لا يعرف أهله كيداً ولا مكرّاً ولا بغضاً ولا
عداء ، وإنما يستقبلون أمورهم راضين عنها مبتهجين بها مطمئنين
إليها . يكون بينهم التنافس في المال والاستباق إلى المجد ، ولكنهم
على ذلك لا يبغي بعضهم على بعض ، ولا يبطش بعضهم ببعض ،
وإنما تجري أمورهم على الدعة والإسماح . وأقصى ما يبلغ الشر بينهم
أن يقول بعضهم لبعض قليلاً أو كثيراً مما يكره من القول ، ثم لا
يلبثون أن يعود بعضهم على بعض بالعافية ، وأت يهدى بعضهم إلى
بعض ألوان البر والمعروف . وقد عرفت العرب القاصية والدانية
ذلك من أمرهم ، فهوت إليهم الأفئدة ، وعطفت عليهم القلوب ،
واتصلت بهم الآمال ، وتعلقت بهم النفوس ، حتى أصبح بلدهم
وما حوله من الأرض حرمّاً آمناً يأوى إليه الخائف ويلوذ به الملهوف .
ولكن مكة تُصبح في ذلك اليوم وقد أظهرت لها السماء ابتساماً ،
فبألت بطاحها وجبالها وربّأها بأشعة الشمس المشرقة الرائعة ،

ولكنها أضمرت لها عُيوساً أى عبوس ، فملأت قلوب نفر من أبناءها بالظلمة المظلمة والكيد المفضى بأهله إلى شرٍّ ما ينتهى إليه الناس . أصبحت قريش فى ذلك اليوم ، فغدا الملاً منها إلى أنديتهم فى المسجد ، وأخذوا فيما كانوا يأخذون فيه من حديث ، إلا نفرأ منهم لم يذهبوا إلى المسجد ولم يحضروا أندية قومهم ، ولم يشغلوا أنفسهم ببيع أو شراء ، ولم يُسَرِّثُوا عن أنفسهم بصيد أو طرد أو بُجُون ، وإنما شُغِلُوا بشئ غدير ذلك كله : شُغِلُوا بتهينة العذاب وجهَ النهار ، وشُغِلُوا بشهود العذاب وسط النهار ، وشُغِلُوا بالتحدث عن العذاب آخر النهار ، ولكنهم لم يتحدثوا عنه وحدهم ، وإنما تحدثت عنه قريش كلها ، ولم تبقَ فى مكة دار إلا ذكر فيها أمر ياسر وامراته وابنه ، وأمر صَهِيب ، وأمر حَبَّاب ، وأمر بلال . وكانت أحاديث قريش عما صُبَّ على هؤلاء الرهط من العذاب مختلفة أشدَّ الاختلاف : فأما شيوخ قريش وذوو أحلامها فكانوا يجدون فى سيرة أبى جهل وأضرابه غلوأ فى الشرِّ وإسرافاً فى القسوة ، ولكنهم على ذلك كانوا يعللون أنفسهم بأن هذه الشدة قد تخوِّف محمداً وأصحابه وتردهم إلى شئ من القصد والأناة ، وإلى أنها قد تَرَدَّعُ الرقيق والمستضعفين وتُريهم ما ينتظر الذين يَصْبُون منهم إلى محمد وأصحابه من البأس والضرر والعذاب . فكانت ضمايرهم تُنكر وقلوبهم تسكت ، وألسنتهم تعرف . وأما الشباب من قريش فكان أكثرهم يرى فى هذا البِدْع لوناً مستحدثاً من التسلية والتسرية والاشتغال

عن النفس وعما تعودت أن تتلهى به من ألوان العبث والجنون . وفي غرائز الناس ميلٌ إلى الشرِّ ، واستحبابٌ للنكر ، واستعذاب للعذاب حين يَمَسُّ غيرهم ويدفعهم إلى فنون من الألم وضروب من الحركات التي يثيرها الألم ، وإلى ألوان من الشكاة التي يبتعثها الألم .

وفي قلوب الشباب قسوة وخفة ، وفي أحلامهم نَزَقٌ وطيش ؛ فهم ينظرون إلى من يُمتَحَنُ في بدنه ، ويأتى من الحركة والقول ما يُسليهم وُبلهيم ، على أنه متاع لأبصارهم ونفوسهم ؛ ولا يقدرون أن هذا العذاب يمكن أن يُصَبَّ عليهم ، وأن هذه الحركات والشكاة يمكن أن تصدر عنهم ، فتُضْحِكُ منهم قوماً آخرين . ولو قد وضع الإنسان نفسه موضع الذين يُصَبَّ عليهم العذاب لَحَنَبَ الناسَ شراً كثيراً . فكان أولئك الشباب من قريش يتحدثون ببراعة أبي جهل فيما كان يخترع من ألوان الفتنة والحنة راضين عنها مُعجبين بها . وكانوا يتحدثون عن احتمال أولئك الرهط للفتنة والحنة في أنفسهم بالجلد والصبر والأناة في كثير من الإعجاب ؛ كما كانوا يتحدثون في عبث وسخرية بما كانت أجسام أولئك الرهط تأتى من الحركات حين يمسها العذاب .

قال الحارث بن هشام لابن أخيه عكرمة بن أبى جهل :
ألم تر إلى تُسمية كيف كان جسمها يتلوَّى حين كانت السياط تُلهيه بغير حساب ، دون أن يَفترَّ فيها عن صيحة أو آنة أو شهيق وهى التى كنا نُثيرها إلى الخوف أو نثير الخوف إليها بأيسر ما كنا

نأتى من الحركات ، نعبث بها ونسخر منها حين نراها تتور
 كأنما دُفعت من الأرض بلولب خفي ! قال عكرمة : لم أعجب
 لشيء كما عَجِبْتُ لزوجها الشيخ الذى مُزق جسمه بالسياط وحرق
 بالنار ليذكر الآلهة بخير ، فلم يظفر منه أبى إلا بشتم الآلهة والاستهزاء
 بها . أما ابنه عمار فقد سكت صوته ، وسكن جسمه للعذاب ،
 وارتسمت على ثغره ابتسامة حلوة مُرّة ، ما أدري أكانت تصور
 الرضا أم كانت تصور الغيظ ؛ ولكنها ارتسمت فى نفسى أشد
 مما ارتسمت على ثغره ؛ وما أرى أنها ستغيب عني آخر الدهر .
 قال صفوان بن أمية : فكيف لو رأيتا بلالا ذلك الحبشى والفتية
 من الأحرار والرقيق يتنازعون جسمه يأخذ كلّ منهم بطرف ، كأنما
 كانوا يريدون أن يفتسموه بينهم ، وهو فى أثناء ذلك لا يتن ولا يشكو ،
 وإنما يثنى على محمد ويذكر إلهه ذاك بالخير . قال خالد بن الوليد :
 أما أنا فقد رأيت من صُصِيب عجباً : رأيت القوم يعذبونه بالنار
 وينوشونه بالرماح ويلهبون جسمه بالسياط ، وهو على ذلك يتحدث
 إليهم حديث من لا يحفل بما كانوا يتالونه به من الأذى . وربما
 اشتد عليه البأس فعقد لسانه عن القول برهة ، وأجرى على جبينه
 شيئاً من عرق ، ثم لا يلبث أن تثوب إليه نفسه ويعود إلى التحدث
 إلى معذّبيه فى بعض أمرهم ، كأنهم لم يتالوه بمكره . وما يزالون
 به يعذبونه بالحديد والنار والسيات ، وما يزال بهم يعذبهم بهدوئه وثباته
 وتحدّثه إليهم فى أيسر أمورهم ، حتى إذا أملّهم أو كاد

يُملِهم ضاعفوا له العذاب ، وخرجوا في ذلك عن أطوارهم ، فيسعى إلى صُهب شيء من ذهول ، ثم يأخذه شيء يشبه السكر ، فيمضي في حديثه ، ولكنه يقول للقوم غير الصواب . ويعرف القوم أنهم قد بلغوا منه بعض ما كانوا يريدون ، فيكفون عنه مكاويهم ورماحهم وسياطهم . وأشهد لقد انصرفت عن هؤلاء القوم وإلى لبعض أمرهم لكاره . قال الحارث بن هشام : أسكت لا يسمعك ابن عمك فيصيبك منه بعض ما تكره .

كذلك كان الشباب من قریش يُعجبون بأولئك الرهط المعذبين ويعجبون منهم ، يستهزئون بهم طوراً ويعطفون عليهم طوراً آخر . وأما المستضعفون والرقيق فكانوا يرون الشر ويعينون عليه حين يُطلب إليهم أن يُعينوا عليه ، تكرهه نفوسهم وترضى عنه ألسنتهم ؛ قد ملأ الخوف أكثرهم ، وتسرب الحب والإشفاق إلى قلوب فريق منهم ؛ فهم ينتهزون الفرص ويتربصون بقریش الدوائر ، ويتحدثون إلى أنفسهم ، وربما تحدث بعضهم إلى بعض ، إذا خلا بعضهم إلى بعض ، بأن الخير كل الخير عند محمد وأصحابه ، وبأن الخير كل الخير في أن ينحازوا إليهم ؛ فالضعف إلى الضعف قوة . ومن يدرى ! لعل الله أن ينتصف لهم ولأمثالهم بمحمد وأصحابه من أولئك البغاة الظالمين . وأما المسلمون الذين صُرف عنهم العذاب ونُحيت عنهم الفتنة فكانوا يشهدون وفي نفوسهم ألمٌ وأملٌ ، وفي قلوبهم حزنٌ وثقةٌ ، قد اطمأنوا إلى أن العاقبة لهم ، واستيقنوا بأن

الله منجز وعده ، ولكنهم على ذلك يرحمون إخوانهم ، وربما تمنوا لو كانوا مكانهم فاحتملوا عنهم بعض ما يحتملون من الأذى .
وربما كان أصدق وصف لمكة حين أمسى المساء من ذلك اليوم أن أكثر أهلها كانوا حائرين ، يرون الفتنة ولا يدرون أيعرفونها أم ينكرونها ؛ لأنهم لا يعرفون أخيراً هي أم شر ؛ وأن أقل أهلها كانوا قد صدّقوا الله ما عاهدوا عليه ، فرضيت نفوسهم واطمأنت قلوبهم واستيقنوا أن العاقبة للمتقين . ولو كشف الغطاء عن أهل مكة لرأوا حين تقدّم الليل من ذلك اليوم أن من حول مكة أعياداً يحفل بها الشياطين وقد استخفهم الفرح واستهواهم الطرب ، ورأوا أصحاب محمد يعدّون أشد العذاب وأقساه ، فغرّهم بالله وبأنفسهم الغرور ، وظنوا أن فتنة هؤلاء الرهط ستحفظ لهم سلطانهم على مكة ، وستمكنّ لهم في قلوب قریش .

وأصبح أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فتحدّثوا إليه من أمر الفتنة بما علموا ، ولكنه تحدّث إليهم من أمرها بما لم يعلموا ، لا لأنه شهد الفتنة ، أو رأى كيف كانت تُصَبّ على المستضعفين من أصحابه ، بل لأن أمر الفتنة كله قد أوحى إليه .

وخرج النبي وأصحابه ففترّقوا في أحياء مكة ، يسعى بعضهم هنا ويسعى بعضهم هناك ، يلتمسون فضلاً من ربهم ، ويريدون في أكبر الظنّ مُواساةً لهؤلاء المستضعفين الذين كانوا يُفتنون عن دينهم ويعذّبون في الله . ويمشى النبي صلى الله عليه وسلم في بعض بطحاء

مكة وقد وضع يده في يد عثمان بن عفان ، وما يزالان يتماشيان حتى
يبلغا آل ياسر ، وقد سَطِحُوا على الأرض مُوثَقَيْن ، ووُضعت
على صدورهم الصخور الثقيل ، وجعل المشركون يمسُونهم بالنار
حيناً بعد حين ، وربما خزَوْهم بالخناجر والحرايب ، وثلاثتهم سكوت
لا ينطقون حرفاً ، والمشركون قد ملأ قلوبهم الغيظ ؛ لأنهم لا
يبلغون منهم شيئاً . وقد أنكروا صمتهم الذي اتصل منذ أخذ في تعذيبهم
مع الضحى ، حتى جعلوا يشتطون عليهم في البأس ليستخرجوا منهم
أنة أو شكاة . ولكنهم ماضون في الصمت ، قد ثَبَّتَ الله قلوبهم ،
وصرف عن نفوسهم الجزع والهلّع . فإذا مرَّ النبي وصاحبه بهؤلاء
الرهط المعذبين سمع المشركون صوت ياسر لأول مرة من يومهم ذاك ،
سمعوا صوت ياسر لا يتجه إليهم وإنما يتجه إلى النبي فيقول :
الدهر هكذا يا رسول الله ! قال رسول الله : أبشروا آل ياسر ؛
فإن موعدكم الجنة . هنالك يسمع المشركون صوت سمية لأول مرة
من يومهم ذاك ، يسمعون صوت سمية لا يتجه إليهم وإنما يتجه
إلى النبي فيقول : أشهد أنك رسول الله ، وأشهد أن وعدك الحق .
وهنالك يسمع المشركون صوت عمار لأول مرة من يومهم ذاك ،
يسمعونه لا يتجه إلى أبويه ، ولا يتجه إلى النبي وصاحبه ، وإنما
يتجه إليهم هم فيقول : عدُّونا يا أعداء الله ما شئتم ؛ فإن موعدنا
الجنة وأنوفكم راغمة . هنالك يخرج المشركون عن أطوارهم وَيَصْبُون
على أولئك الرهط من العذاب ما ليس إلى وصفه سبيل .

ويمضى أبو بكر في بعض بطحاء مكة فيرى بلالا وقد عذب حتى ملّت قريش تعذيبه . عذبوه بالنار والماء ، وعذبوه بالحديد والسياط ، طرحوه على الأرض في الرمضاء ، وأثقلوه بالصخر ، يريدونه على أن يذكر آلتهم بخير فلا يسمعون منه إلا : أحد ، أحد . يقول له أمية بن خلف : أذكر آلتنا بخير يا بلال يُرْفَعُ عنك هذا العذاب ؛ فيجيب : إنّ لساني لا يطاوعني . ثم يمضى في ذكره قائلاً : أحد ، أحد . فيملّ أمية بن خلف وأصحابه فيضعون عنه أنقاله ثم يقيمونه ، ثم يضعون الحبال : حبلاً في إحدى ذراعيه وحبلاً في ذراعه الأخرى ، وحبلاً في إحدى ساقيه وحبلاً في ساقه الأخرى ، ثم يدعون الصبية ويلقون إليهم بهذه الحبال ، ويأمرهم أن يعدّوا ببال حتى يجهدوا أنفسهم ويجهدوه . ويفعل الصبية ما أمروا ، فيعدّون به إلى يمين ، ويعدّون به إلى شمال ، ويعدّون به إلى أمام ، ويعدّون به إلى وراء ، وهم يتصايحون ويتضاحكون ، وأمّية بن خلف وأصحابه ينظرون ويتعابثون ، وبلال لا يحفل بشيء من ذلك ، وإنما هو يتبع العادين به حيث يعدّون ، لا يقاوم ولا يتمنع ولا ينفكّ لسانه عما أخذ فيه من ذكر : أحد ، أحد ، ثم أحد ، أحد . وقد بلغ الجهد من الصبية حتى جعلوا يلهثون ، ثم تراخت أيديهم وألقوا بجبالهم إلى الأرض . وظلّ بلال قائماً ماضياً في ذكره : أحد ، أحد . حتى يبلغ الغيظ من أمية وأصحابه ، فيدفع بعضهم في صدر بلال حتى يُلقوه على الأرض إلى ظهره .

فيسقط وَيُسْمَعُ لسقوطه صوتٌ مُرَوِّعٌ ، ولكن ذكره متصل :
 أحد ، أحد . وَيَهْمُ أُمِيَّةٌ أَنْ يَبْطِشَ بِهِ لَيْسَكَ هَذَا الصَّوْتُ
 وَيَقْطَعُ هَذَا الذِّكْرُ ، وَلَكِنْ أَبَا بَكْرٍ يَعْرِضُ لَهُ قَائِلًا : وَيُحْكِمُ !
 فِيمَ تَعْدُّ بُونَ هَذَا الرَّجُلِ ؟ قَالَ أُمِيَّةٌ : وَمَا أَنْتَ وَذَاكَ يَا ابْنَ أَبِي قَحَافَةَ ؟
 عَبْدٌ لَنَا نَصْنَعُ بِهِ مَا نَشَاءُ . قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هُوَ عَبْدُ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ
 يَكُونَ عَبْدُكَ يَا أُمِيَّةَ . إِنَّكَ إِنْ تَأْتِ عَلَى نَفْسِهِ تَأْتُمُ وَنُضَيِّعُ مَالَكَ ،
 فَهَلْ لَكَ فِي شَيْءٍ خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ ؟ قَالَ أُمِيَّةٌ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ
 أَبُو بَكْرٍ : أَشْتَرِي مِنْكَ هَذَا الرَّجُلَ ، وَاحْتَكِمُ فِي ثَمَنِهِ . قَالَ أُمِيَّةُ وَقَدْ
 ضَجَرَ بِلَالٌ وَتَأَدَّبِيهِ وَتَعَذَّبِيهِ : قَدْ فَعَلْتُ ، فَأَدِّ إِلَى ثَمَنِهِ سَبْعَ أَوَاقٍ .
 قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَخَلَّ سَبِيلَهُ وَرُحْ مَعِيَ إِلَى حَيْثُ أَوْدَى إِلَيْكَ
 مَالَكَ . قَالَ أُمِيَّةٌ : أَدِّ إِلَى مَالِي أَخْلُ عَنْهُ . قَالَ أَبُو بَكْرٍ :
 وَيُحْكِمُ يَا أُمِيَّةَ ! مَتَى عَهْدَتَنِي أَلْتَوِي عَلَيْكَ بِالْدِّينِ ! قَالَ
 أُمِيَّةٌ وَقَدْ اسْتَحْيَا : صَدَقْتَ ، خُذْ غِلَامَكَ وَأَرْسِلْ إِلَى ثَمَنِهِ مَتَى
 شِئْتَ . قَالَ أَبُو بَكْرٍ : إِنَّمَا هِيَ رَوْحَتِي إِلَى أَهْلِي ثُمَّ يُوَدِّى مَالَكَ
 إِلَيْكَ ..

وَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِلَالًا مِنْ يَدِهِ فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى دَارِهِ ، وَهَنَالِكَ
 رَفَقَ بِهِ وَخَفَّفَ عَنْهُ بَعْضَ مَا وَجَدَ مِنَ الضَّرِّ ، وَأَرْسَلَ إِلَى أُمِيَّةَ مَالَهُ .
 وَتَلَبَّثَتْ فِي دَارِهِ يَرْفُقُ بِلَالًا وَيَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ ، وَيَقْرَأُ عَلَيْهِ مِنْ آيَاتِ
 الذِّكْرِ ، حَتَّى إِذَا عَادَ رَسُولُهُ وَعَرَفَ أَبُو بَكْرٍ أَنَّ أُمِيَّةَ قَدْ قَبِضَ
 مَالَهُ التَّفَتَّ إِلَى بِلَالٍ وَابْتَسَمَ لَهُ وَقَالَ : انْطَلِقْ بِلَالُ فَأَنْتَ حُرٌّ .

وأَمْسَى أَبُو بَكْرٍ فَلَقِيَ رَسُولَ اللَّهِ وَأَنْبَأَهُ بِمَا رَأَى مِنْ فِتْنَةِ بِلَالٍ ،
وَبَأْنَهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَسْتَنْقِذَهُ حَتَّى اشْتَرَاهُ . قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ : الشَّرَكَةُ يَا أَبَا بَكْرٍ . قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَإِنِّي قَدْ أَعْتَقْتَهُ يَا رَسُولَ
اللَّهِ ؟ .

وَمَرَّ قَوْمٌ آخَرُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ بِحَيٍّ آخَرَ مِنْ أَهْلِياءِ قَرِيشٍ
فَيَرُونَ ، وَيَا هَوْلَ مَا يَرُونَ ! يَرُونَ نَارًا عَظِيمَةً قَدْ أَجْجَتْ ، وَيَرُونَ رَجُلًا
قَدْ شُدَّ وَثَاقُهُ ، وَيَرُونَ قَوْمًا يَحْمِلُونَهُ وَيُدْنُونَهُ مِنَ النَّارِ حَتَّى تَوْشَكَ
أَنْ تُحِيطَ بِهِ ، ثُمَّ يَخْتَطِفُونَهُ اخْتِطَافًا فَيُبْعِدُونَ بِهِ عَنِ النَّارِ ، ثُمَّ
يُقِيمُونَهُ أَمَامَهُمْ مَشْدُودًا مُقِيدًا ، ثُمَّ يَتَقَدَّمُ أَحَدُهُمْ فَيُدْفِعُ بِرِجْلِهِ
فِي صَدْرِهِ دَفْعَةً تُسْقِطُهُ إِلَى ظَهْرِهِ وَهُمْ يَتَضَاحِكُونَ ، ثُمَّ يَعُودُونَ
فَيَفْعَلُونَ بِهِ مِثْلَ فَعْلِهِمُ الْأَوَّلِ . يَقُولُ لَهُ قَائِلُهُمْ : أَذْكَرُ آلَئِنَّا بَنَجِيرٍ
وَقَعَّ فِي مُحَمَّدٍ وَدِينِهِ أَوْ كَلِمَتَيْنِكَ هَذِهِ النَّارُ وَهَذِهِ الْأَرْضُ ! فَلَا
يَسْمَعُونَ مِنْهُ إِلَّا : أَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ .
وَمَا يَزَالُونَ يَقْدُمُونَهُ إِلَى النَّارِ وَيُؤَخِّرُونَهُ عَنْهَا ، وَيُدْفَعُونَهُ إِلَى الْأَرْضِ
ثُمَّ يَرُدُّونَهُ قَائِمًا حَتَّى يُغْشَى عَلَيْهِ . هُنَالِكَ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ :
أَبْقُوا عَلَيْهِ يَا مَعْشَرَ قَرِيشٍ ، لَا تَأْتُوا عَلَى نَفْسِهِ ، فَيَسْأَلُكُمْ عَنْهُ حَلْفَاؤُهُ
مِنْ زُهْرَةَ .

وَيَعُودُ أَصْحَابُ النَّبِيِّ فَيَنْبِئُونَ إِخْوَانَهُمْ بِمَا رَأَوْا مِنْ أَمْرِ خَبَّابِ
ابْنِ الْأَرْتِ . وَتَمْضِي أُمُورُ قَرِيشٍ وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى
هَذَا النَّحْوِ الْأَيَّامِ ثُمَّ الْأَشْهُرُ ثُمَّ السِّنِينَ ، لَا تَبْلُغُ قَرِيشُ مِنْ

هؤلاء المستضعفين شيئاً في دينهم ، إلا أن تكون كلمة الله قد
قد حَقَّتْ على بعضهم فَيُفْتَنُ عن دينه ويكفر بعد إسلام ،
أو أن يكون الله قد آثر بعضهم بالحسنى فيختاره لحواره ويجعل له
عنده مقاماً محموداً .

اجتمعت قريش ذات يوم لأمر عظيم حين انتصف النهار ،
زعم لها أبو جهل أنه بالغ من ياسر وأهله ما يريد ؛ فقد عذبهم
حتى أشفوا على الموت ، ولن يتركهم حتى يذكروا آلهة قريش
بخير ويقعوا في محمد بما يكره . قال عُتْبَةُ بن ربيعة : هيهات
أبا الحكم ! إن ياسراً رجلٌ جَلْدٌ ، وإنه ما علمت ليؤثر الموت
على أن يُبلغك ما تَرْضَى . قال أبو جهل : فإن ذكر آلهتنا بخير
وذكر محمداً بسوء ؟ قال عُتْبَةُ بن ربيعة : هيهات يا أبا الحكم !
إنما هي أمانى ، وما أرى إلا أنك قد أزمعت أن تأتى على نفس
هذا الشيخ . قال أبو جهل : فإن ذكر آلهتنا بخير وذكر محمداً
بسوء ؟ قال عتبة : فلك عشرون من الإبل . قال شيبه بن ربيعة :
ولك منى مثلها . قال أبو جهل : إن مالكما عليكما لهين . قال عتبة :
فإن أتيت على نفس ياسر قال شيبه : دون أن تبلغ منه ما تريد
ونريد ؟ قال أبو جهل : فاحتكما إذن . قال عتبة : لن نحتكم
ولن نرزاك في مالك شيئاً ، وَحَسْبُنَا أن تظهر من نفسك على عنادها .
وأقبل الذين استخفهم هذه المخاطرة فشهدوا عذاب ياسر وُسْمِيَةً
وعَمَّار .

ولم تر قریش من العذاب فی مكة مثل ما رأت ذلك اليوم ،
ولكنها على ذلك لم تظفر بشيء مما أملت . أقبل أبو جهل ومعه
أصحابه ، فرأى الناس أنطاعاً من آدم يسع كل نطع منها
رجلاً وقد ملئت ماء ، ورأوا ناراً مؤججة ومكوى قد أحى عليها ،
ورأت تلك الأسرة قد شد وثاق كل منها وألقى ثلاثهم فی جانب
من الطريق كما يلتقي المتاع غیر ذی الخطر . فلما بلغ أبو جهل
وأصحابه مكان العذاب أمر غلمانہ فوضعوا بین یدیه یاسراً وسمیة وعماراً ،
وألستهم لا تفتش عن ذکر الله ، فألهب أجسامهم بالسیاط ، ثم
أذاقها مس النار ، ثم صب عليها قرب الماء ، ثم عاد فیهم
سیرته تلك مرة ومرة ، ثم أمرهم فغطوا فی الأنطاع التي ملئت ماء
حتى انقطعت أنفاسهم أو کادت ، ثم ردهم إلى الهواء ، وانتظر
هم حتى أفاقوا ، وتسمع لما ينطقون به بعد أن تاب إلیهم شيء
من قوة ، فإذا هم یدکرون الله ویثنون على محمد . قال أبو جهل
لسمیة وقد بلغ منه الغیظ أقصاه : لتدکرین آلهتنا بخیر ، ولتدکرین
محمدًا بسوء أو کتوتین . تعلمی أنك لن تری مساء هذا اليوم إلا
أن تکفری بمحمد وربہ . قالت سمیة بصوت هادی متقطع قليلاً :
بؤساً لك ولآلهتك ! وهل شيء أحب إلى من الموت الذی یریحنی
من النظر إلى وجهك هذا القبیح ! هنالك تضاحك عتبة وشيبة بن
ربیعة ، وأخرج الحق أبا جهل عن طوره فجعل يضرب فی بطن
سمیة برجله وهي تقول له فی صوتها الهادی المتقطع : بؤساً لك

ولآهتلك ! ويُجَنُّ جنون أبي جهل ، فيطعن سمية بحربة كانت في يده فشقق شهقة خفيفةً ، ثم تكون أول شهيد في الإسلام .

يقول ياسر : قتلها يا عدو الله ! بؤساً لك ولآهتلك ! ويقول عمار : قتلها يا عدو الله ! بؤساً لك ولآهتلك ! ليمتلئ قلبك غيظاً وحنقاً ؛ فإن رسول الله قد ضرب لها موعداً في الجنة . قال ياسر : أشهد أن وعد الله حق . ولكن أبا جهل لم يمهله ، وإنما يضرب في بطنه برجله فيشقق ياسر شهقةً ، ثم يُصبح ثانی شهيد في الإسلام . قال عتبة وشيبة بن ربيعة : ألم تُحَكِّمْنَا إن لم تبليغ من ياسر وامراته شيئاً ؟ فسكت أبو جهل ، وقال الملاء من قريش : بلى ! نحن على ذلك شهداء . قال عتبة : فينبغي أن تُطْلِقَ هذا الرجل وأن تُخْلَى بينه وبين الحرية ليوارى أبويه .

وراح أبو جهل من يومه ذاك إلى أهله مغيضاً مُحْنَقاً منكسر النفس ، لا يدرى أغاظه أن أفلت منه هذان الشهيدان دون أن يبلغ منهما ما أحب ، أم غاظه أن صبرهما وثباتهما وإقدامهما على الموت في غير جزع ولا هلع ولا اضطراب إنما هو انتصار لمحمد ودينه الجديد على قريش ودينها القديم . فأصحاب محمد يموتون في سبيله وفي سبيل دينه ، وضعفاء قريش وأشرافها وأحلافهم يسعون إلى محمد فيؤمنون له ، يستخفي بذلك أكثرهم ويعان ذلك أقلهم ، ولكنهم يسعون إليه ويؤمنون له على كل حال . وهؤلاء المستضعفون وهؤلاء الرقيق الذين كانوا يؤمنون لأشراف قريش بالسيادة ويدينون

لهم بالطاعة ويرهبونهم غائبين وشاهدين ، قد أخذوا يتمرّدون عليهم
ويثورون بهم ويُنكرون سيادتهم وسلطانهم ، يبادونهم بذلك أحياناً
ويُخفّون ذلك عليهم أحياناً أخرى . فإذا أخذت منهم قریش هذا
الحرّ أو ذاك الرقيق لم يهابا ولم يرهبّا ولم يُدعنا ولم يستكينا ، وإنما
استقبلا العذاب والفتنة وقلوبهما راضية ونفوسهما مطمئنة وعلى
تغريهما ابتسامات تُحَفِّظ وتَمَلَأ النفوس حَنَقاً . أغاظ أبا جهل
هذا كله ، أم غاظه أن محمداً يسمع ويرى ويعلم من أنباء الفتنة
والعذاب ما تعلمه قریش كلها ، فلا يهاب ولا يرهب ولا يترك شيئاً
مما هو فيه من نشر دينه الحديد والدعوة إليه ، ثم هو لا يكتفي
بذلك ، وإنما يخرج مع بعض أصحابه فيوأسى من يعدّون من أتباعه
بما يقول لهم من هذا الكلام الذى ياتهمونه التهاماً ، والذى يزيدهم
على الفتنة والحنة صبراً وثباتاً ؛ وأى سخر من قریش أشدّ من هذا
السخر ! وأى استفزاز لقریش أشدّ من هذا الاستفزاز ! وأى ازدراء
لسلطانها أشدّ من هذا الازدراء ! وأى استهزاء بالملا من أشرافها
أشدّ من هذا الاستهزاء ! وما عسى أن تقول العرب فى أقصى الأرض
وأدناها حين تعلم أن فى جنب قریش شوكة أعيت سادتها وقادتها
وذوى أحلامها ، فلم يستطيعوا لها انتزاعاً ، وإنما ثبتت لكيدهم
ومكرهم ، ثم جعلت تُثبت من حولها شوكة صغاراً إن لم تكن
مثلها قوة وحدة وأيداً فهى تنشر الأذى وتُشيع الألم ، وتوشك أن
تجعل جسم قریش كله عليلاً لا أمل له فى برء أو شفاء ؟

أغاظ هذا كله أبا جهل ، أم غاظه أن الملاء من قريش رأوا أن شدته لم تُغن عنهم ولا عن آلهتهم شيئاً ، وإنما انتهت إلى القتل الذي لا تحبه قريش ، والذي لا يزيد محمداً وأصحابه إلا استمساكاً بدينهم وصبراً فيه ؟ أم غاظه أن عتبة ابن ربيعة وشيبة بن ربيعة ظفرا به وظهرها عليه وشمتا بما كان يُظهر من حزم وصرامة وجد ، ويوشكان بعد هذا الإخفاق أن يستأثرا بسمع قريش وقلبها وحبا وقيادها ؟ أم غاظ أبا جهل كل هذا مجتمعا ؟ لست أدرى ! ولكني أعلم أنه راح إلى أهله مغيطاً محنقاً يظهر الغضب ويخفي انكسار النفس . وقد ساء لذلك خلقه ، فلم يستطع أحد من أهله أن يقول له شيئاً أو يسمع منه شيئاً . لم يجلس إلى طعام ولم يسمع لحديث ، وإنما خلا إلى نفسه فأنفق ليلة ثائرة حزينة كئيباً لم يذق فيها النوم إلا غراراً .

كذلك راح أبو جهل إلى داره وأنفق ليلته فيها . فأما عمار فقد نُحِل إلى داره ، وُحْمِل معه إليها أبواه : حملهم قوم من قريش فيهم المسلم وفيهم غير المسلم ، قد نَسُوا أو تَنَاسَوْا ما بينهم من خصومة ، وذكروا أن بينهم مكروباً يجب أن يُوَآسَى ، وميتين يجب أن يُوَارَيَا في التراب . وقد نهضوا بهذا كله متعاونين كأحسن ما يكون التعاون ؛ فرفتموا بعمار ، ولم يكن في حاجة إلى الرفق ، وأعانوه على دفن أبيويه وكان إلى معونتهم على ذلك محتاجاً . وعاد عمار بعد أن وارى أبيويه إلى داره وقد تفرق عنه المشركون والتأمت حوله جماعة من المسلمين .

وكان عمار يجد في جسمه ألم العذاب ، ويجد في قلبه حلاوة الإيمان ، ويجد في نفسه كدح الحزن على أبيه . يقول له عثمان بن عفان : ما يحزنك عليهما وقد استوفيا نصيبهما من الدنيا وسبقاك إلى نعيم الله ورضوانه ؟ ألم تسمع نبي الله وهو يضرب لكم موعداً في الجنة مرةً ، ويدعوكم إلى الصبر مرةً أخرى ، وهو يقول : اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت ؟ قال عمار صدقت أبا عمرو ، ما ينبغي أن أحزن عليهما ، وإنما ينبغي أن أستبشر لهما وقد سبقا إلى الجنة ، وعدتهما بذلك رسول الله ووعد الله حق . قال عثمان : فإن رسول الله قد وعدك بما وعدهما به . قال عمار : هيات أبا عمرو ! لو متَّ معهما لكنت خليفاً أن أرضى ، ولكنهما ذهبا وبقيت ، وفي الحياة فتنة وفي النفس ضعف . وإنه ليحزنني أن فائتي بهما الموت فأصبحت مُعرَّضاً لما يتعرض الناس له من الإثم الذي يُحبط العمل ، ومن السيئات التي تمحو الحسنات . قال عثمان : ما ينبغي أن تياس من رَوْحِ الله ولا أن تقتنط من رحمته . وإنك معرض للإثم كما أنك معرض للعمل الصالح . وإنك معرض للسيئات كما أنك معرض للحسنات . وما ينبغي أن تكره الحياة وفيها رسول الله . قال عمار : أما هذا فنعم . ثم نهض كأنه لا يجد ألماً ولا سقماً ولا عناء ، وكأنما ردت إليه قوته كأقوى ما تكون قوة الرجال . نهض وهو يقول لعثمان وأصحابه : ويحكم ! ما يحبسنا عن رسول الله ! ومضوا إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم فجلسوا مع غيرهم من جماعة المسلمين

إلى النبي يسمعون له وهو يعظهم وَيُزَكِّيهِمْ ويتلو عليهم القرآن .
قال أبو جهل لعتبة بن أبي ربيعة وأخيه شيبه : أما إنكما قد استنقذتما
حُشاشة عمار من الموت ! ولو قد حَلَلَيْتَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ كَوُورِي فِي
التراب ثلاثة لا اثنان . قال عتبة : فقد خففنا عنك الوزر أبا الحكم .
قال أبو جهل وقد ابتسم ثغره عن نية منكرة ورأى بشع : إني لا أحب
لعدوى أن يموت ؛ لأن ذلك يُرِيحُهُ وَيَكْفِي عَنْهُ بِأْسِي وَيُرَدُّ عَلَى
قَلْبِي مَا فِيهِ مِنَ الْغَلِّ . وإنما أحبُّ له أن يحيا لأذيقه البأس مجدداً ،
وَلَأَجْرَعُهُ غُصَصَ الْعَذَابِ شَيْئاً بَعْدَ شَيْءٍ . ولا واللات والعزى
لا تعرضان بَيْنِي وَبَيْنَ عِمَارٍ مِنْذُ الْيَوْمِ إِلَّا أَنْ تَرِيدَا إِثَارَةَ الشَّرِّ بَيْنَ
حَيَّكُمَا وَبَيْنَ مَخْزُومٍ كُلِّهَا . فقد كان ياسر لنا حليفاً ، وكانت
سمية لنا أمة ، وما زلنا نرى عماراً لنا عبداً . قال شيبه : فإن عملك
أبا حذيفة قد أعتق عماراً وأخويه . قال أبو جهل : فإن لنا ولأهملهم
على كل حال . قال عتبة : هو ذاك . وأضمر أبو جهل في نفسه
ما أضمر ، وادّخَرَ الله لعمار من الكرامة ما ادّخَرَ ؛ فقد اتصلت
فتنة عمار ما أقام بمكة ، وافتنَّ أبو جهل في هذه الفتنة حتى جعلها
أحاديث . وأول ما قَدَّرَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَحْفَظَ عَلَى عِمَارٍ حَيَاتِهِ وَحَرِيَّتَهُ
فَلَا يَأْتِي عَلَى نَفْسِهِ وَلَا يُلْقِيهِ فِي غِيَابَاتِ السِّجْنِ ، وإنما يجعله لحمد
وأصحابه نكالا : يَفْتَنُهُ كُلُّمَا أَحْسَسَ الْحَاجَةَ إِلَى أَنْ يَفْتَنَهُ ، وَيَعَذِّبُهُ
كُلُّمَا أَحْسَسَ الشَّوْقَ إِلَى أَنْ يَشْهَدَ مَشْهَدَ الْعَذَابِ . وكأنه حالف الشيطان
على أَنْ يُوَفِّيَ عِمَاراً مِنَ الْعَذَابِ مَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَصُوبَ عَلَى أَبَوَيْهِ ،

وأن يظفر منه بما لم يظفر به من ياسر وسمية ؛ فيضطره إلى أن يذكر
 آلهته بخير ، وأن ينال من محمد صلى الله عليه وسلم . وأعانه الشيطان
 على ذلك كله ، وأعانه عليه قوم آخرون من سفهاء قريش . فترك
 عماراً آمناً مُعافىً في نفسه وبدنه ودينه ، لم ينله بأذى ، ولم يعرض
 له بسوء ، حتى استراح عمار من محنته ووطن أنه قد أمن الفتنة .
 فكان يغدو على دار الأرقم بن أبي الأرقم ، فيسمع من النبي ويتحدث
 إليه ، ثم يروح إلى داره وقد اتخذ فيها ما لم يتخذه مسلم قبله
 في داره : اتخذ فيها مسجداً يعبد الله فيه أكثر الليل ، حتى أنزل
 الله في ذلك قرآناً : « آمَنُ هُوَ قَانَتْ آنَاءُ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً
 يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ
 يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ » فيما تحدث
 به ابن عباس .

ولكن أصحاب النبي يجتمعون ذات يوم في دار الأرقم بن أبي
 الأرقم ، حتى إذا ارتفع الضحى افتقدوا عماراً بينهم فلم يجدوه .
 فإذا ذكروا ذلك أنبأهم النبي صلى الله عليه وسلم بأن عماراً
 يُعَذَّبُ في الله . ثم يمر النبي بعد أن يتقدم النهار بمكان في بطحاء
 مكة فيرى أبا جهل وقد عاد في عمار سيرته الأولى : نارٌ مُوجَّجة ،
 وماء مجتمع في نطع من الأدم ، وعمار قد ألقى بينهما ، وجعل السفهاء
 من قريش ينوشونه بالرماح ويحرقونه بالنار ، وعمار صابر صامت
 يذكر الله في قلبه ويكفُّ لسانه عن القول . فإذا رأى النبي

ذلك قال : يا نار كوني بَرْدًا وسلاماً على عمار كما كنت برداً وسلاماً على إبراهيم . وقد سلَّط أبو جهل من النار على عمار أثناء فتنته الطويلة له ما كان خليقاً أن يأتي على نفسه . ولكن الله يقول لعباده : « اذْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » . وقد دعاه في عمار أحبَّ عباده إليه وأرضاهم عنده . والله حكمة بالغة ، ولكل أجل كتاب . وقد احتمل عمار في ذلك اليوم من العذاب ما يُطبقه الرجال وما لا يطيقونه ، حتى إذا جنت الشمس لمغربها كفَّ عنه العذاب ورُدَّ إلى داره . وأمهلته أبو جهل بعد ذلك أياماً طويلاً ، حتى ظن عمار أنه لن يُفْتَنَ مرةً أخرى . ولكن أبا جهل لم يُمهله إلا ليشدد عليه في الفتنة ويُضَاعِفَ له العذاب . ويراها النبي ذات يوم وقد بلغ الحزن من نفسه وقلبه ما لم يبلغه منهما قط ، وعيناه تنهالان بدموع غزار ، فيدنو النبي منه رفيقاً به ، فيكفكف دمهعه ويمسح عينيه ويقول : وَيَحَاكَ ابْنَ سُمَيَّةَ ! أَخَذَكَ الْكَفَّارُ فغَطَّوْكَ فِي الْمَاءِ حَتَّى قَلْتَ كَذَا وَكَذَا ، فَإِنْ عَادُوا فَعُدُّ ؛ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَعُودُوا مِنْ فُورِهِمْ ، وَإِنَّمَا انْتَظَرُوا بَعَارَ حَتَّى أَطْمَعُوهُ فِي الْعَافِيَةِ ، ثُمَّ أَخَذُوهُ فَعَذَّبُوهُ وَفَتَنُوهُ ، ثُمَّ تَرَكُوهُ . وَأَقْبَلَ عِمَارٌ عَلَى النَّبِيِّ خَزِيانَ أَسْفَافاً تَهْلُ دُمُوعُهُ غَزَاراً عَلَى وَجْهِ مُرْبَدٍّ كَثِيبٍ . فَلَمَّا رَأَاهُ النَّبِيُّ قَالَ : مَا وَرَاعُكَ ؟ قَالَ عِمَارٌ وَهُوَ يَنْتَحِبُ : شَرٌّ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَاللَّهِ مَا تَرَكُونِي حَتَّى ذَكَرْتَ آلِهَتَهُمْ بَخِيرَ وَذَكَرْتَكَ بِمَا تَكْرَهُ وَيُحِبُّونَ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : فَكَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ ؟ قَالَ عِمَارٌ : أَجِدُهُ مَطْمَئِنّاً بِالْإِيمَانِ . قَالَ رَسُولُ

الله : فإن عادوا فعد . وأنزل الله في ذلك قرآنا : « مَنْ كَفَرََ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » .

ولم يخلص عمار من هذه الفتنة المنكرة التي كانت تتلاحق طورا وتقطع طورا آخر إلا حين أذن الله للمسلمين في الهجرة إلى أرض الحبشة . فهاجر عمار الهجرة الثانية ، ثم هاجر بعد ذلك إلى المدينة ، فعاش مع رسول الله آمنا سالما موفورا .

١٦

استوثق رسول الله صلى الله عليه وسلم لدعوته ولأصحابه ولنفسه من حبي يثرب : الأوس والخزرج ، وعاهدهم أن يؤووه وينصروه ويحموا ظهره ويقاتلوا من دونه من بغى عليه أو أراد به سوء حتى يبلغ رسالات ربه . وبايعه على هذا العهد نقباء هذين الحيين الأوس والخزرج . ثم أذن الله بعد ذلك لرسوله وللمسلمين في الهجرة إلى مستقرهم الجديد . وكان الإسلام قد سبقهم إلى يثرب ، بشّر به مَنْ أرسله رسول الله ليبشر به . فكانت الهجرة إلى دار استقر فيها الإسلام قبل أن يستقر فيها المهاجرون . وقد أذن رسول الله

لأصحابه في الهجرة إلى المدينة ، فجعلوا يذهبون إليها أرسالا ، وهو صلى الله عليه وسلم مقيم بمكة ينتظر أن يأذن الله في الخروج . واجتمعت جماعة المسلمين المهاجرين إلى إخوانهم من الأنصار في قُبَاء ، وجعلوا ينتظرون أن يقدم عليهم رسول الله . وكانوا في أثناء ذلك يقيمون الصلاة كما كانوا يقيمونها بمكة . وينظر المسلمون فإذا أقرؤهم للقرآن وأحفظهم عن النبي سالم بن أبي حذيفة ، فيُقَدِّمونه ليؤمهم في الصلاة ، وفيهم أعلام من المهاجرين ، منهم عمر بن الخطاب الذي كان إسلامه فتحاً ، وهجرته نصراً ، وخلافته رحمة ، كما قال فيما بعد عبد الله بن مسعود . وينظر المشركون والمنافقون من الأوس والخزرج فيرون هذه الجماعة من المهاجرين والأنصار يقدمون سالماً ليؤمهم في الصلاة . فيكبرون من أمر سالم هذا بادئ الرأي ، ثم لا يلبثون أن يذكروه ويعرفوه . يقول بعضهم لبعض : ألا ترون إلى هذا الرجل الذي يصلي بهذه الناجمة من أصحاب محمد من هاجر منهم إلى المدينة ومن كان من أهلها ! إنه سالم . ألا تذكرون سالماً ؟ فيجهد القوم أنفسهم ليدذكروه ، ولكن بعضهم يعيد عليهم قصة ذلك اليهودي الذي كان يعرض على العرب واليهود صبيّاً حديثاً لا يُحسن العربية ولا يفهمها . وما هي إلا أن يسمعوا بدء هذه القصة حتى يستحضرُوا سائرَها ، وحتى يروا ذلك الصبي الذي مسه الضر وظهر عليه البؤس وزهد فيه العرب واليهود جميعاً ، واشترته ثُبَيْتَةُ بنت يعار ، لا رغبة فيه بل عطفاً عليه .

ثم يقول بعضهم لبعض : لو عاش سلام بن حبير لرأى من صبيه ذاك عجباً . ثم يقول بعضهم لبعض : ألا ترون إلى هذه النابجة من أصحاب محمد يؤمهم فارسي قد كان بالأمس عبداً ؟ ثم يرد بعضهم على بعض رجع هذا الحديث فيقول : إن هؤلاء الناس لشأناء ، إنهم يسودون العبيد ، ويلغون ما بين الأحرار والرقيق من الفروق ، وإنا لنرحم قريشاً مما ألم بها ، وإنا لنعذر قريشاً مما فعلت بمحمد وأصحابه . ولو استطعنا لفتناهم كما فتنهم قريش ، ولنغيناهم عن أرضنا كما نفهم قريش . ولكن هل إلى هذا من سبيل ؟ فيقول قائلهم : هيات ! لقد آمن لهم أولو البأس والقوة من قومنا . ولكن فريقاً من هؤلاء المتحدّثين يسمعون ثم ينكرون ثم يؤثرون الصمت ، ثم يخلو بعضهم إلى بعض فيستأنفون بينهم حديثاً جديداً يعجبون فيه من أمر هذا الذي كان عبداً بالأمس ، ثم هو يؤم الأحرار في صلاتهم اليوم . ثم يتبعون المهاجرين فيرون فيهم نفراً غير قليل من الرقيق الذين أعتقوا ، أعتقهم إسلامهم . ثم يتبعون سيرة الأحرار الأشراف من المسلمين مع هؤلاء الذين ردت عليهم الحرية بعد أن نشئوا في الرق ، فيرونها تقوم على الإحياء والعدل والنصفة والمساواة . ثم يتحدّثون في ذلك إلى المسلمين من قومههم ، فيقول لهم هؤلاء : إن الإسلام لا يفرق بين الحر والرقيق ، ولا يميز بين الناس إلا بالتقوى وبما يقدّمون بين أيديهم من البر والخير وعمل الصالحات . هنالك تطمح قلوبهم إلى هذه المساواة التي لم يسمعوا

بها من قبل ، وإلى هذا العدل الذى لم يألفوه ، وإذا هم يميلون إلى الإسلام ، ثم يُسرعون إليه ، ثم يحرصون على أن يؤمهم سالم بن أبى حذيفة ذلك الذى كان عبداً بالأمس ، فأصبح يؤم الأشراف من قريش ومن الأوس والخزرج حين يقومون بصلاتهم بين يدى الله .

١٧

بلغ النبى وصاحبه أبوبكر قُبَاء ، ونزلا فيها بين جماعة المسلمين من المهاجرين والأنصار . وقد فرح النبى بهجرته إلى المدينة ، وفرحت المدينة بهجرته إليها ؛ فهى فى عيد متصل . والأنصار يستبقون إلى برِّ النبى وأصحابه من المهاجرين : يؤوفونهم ، ويقومون بحاجاتهم ، ويُطِرفونهم بما يستطيعون أن يُطِرفوهم به من الطيبات . وقد تقدّم النهار وصُلِّيت الظهر ، وأقبل رجل من الأنصار فوضع بين يدى النبى رُطْباً ، وجعل النبى وصاحبه أبو بكر وعمر يُصيصون من هذا الرطب . وإنهم لنى ذلك وإذا شخصٌ يُرْفَعُ لهم ، ثم يدنو منهم ، ثم يسلم عليهم ، ثم يجلس إليهم ، وإذا هو صهيبٌ سابقٌ الروم إلى الإسلام ، كما قال فيه رسول الله .

وقد أقبل صهيب مجهداً مكدوداً قد بلغ منه الإعياء وكاد يأتى عليه الجوع ، وقد أصابه فى طريقه رَمَدٌ ، فهو لا يكاد يرى إلا

في مشقة أى مشقة . وقد ألقى تحيته إلى أصحابه ، ثم ألقى نفسه على الأرض ، ثم نظر فرأى الرُّطْبَ فانكبَّ عليه وجعل يأكل منه أكلا غير رفيق . يقول عمر بن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم : ألا ترى يا رسول الله إلى صهيب يأكل الرطب وهو رَمِدٌ ؟ فيقول له النبي : أتأكل الرطب وأنت رَمِدٌ ؟ فيقول صهيب وهو يمعن في الأكل : إنما آكله بشقٍّ عني الذي لم يَرْمَدْ ؛ فيستسم رسول الله ويضحك القوم . ويمضى صهيب في أكل غير رفيق ، حتى إذا أَرْضَى حاجته إلى الطعام جعل يعاتب أبا بكر فيقول : وعدتني الصحبة ثم تركتني . ثم يُعَاتِبُ النبي فيقول : ووعدتني يا رسول الله الصحبة ثم تركتني ، والله ما خلصت إليك حتى اشتريت نفسي من قريش بمالٍ أجمع ، وما تركتُ مكة إلا بُعْدٌ من دقيق عجنته بالأبواء وعشت عليه حتى انتهيت إليك . فيجيبه رسول الله : رَبِحَ البيع أبا يحيى ! ربح البيع ! وينزل الله هذه الآية الكريمة : «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ» وقد أوجز صهيب قصة هذا البيع الرابع .

وقد كان من أخلاق المسلمين الصادقين ألا يتكثروا ولا يَمْنُونَا بإسلامهم ، وقد ثابت قريش بعض الشيء إلى نفسها بعد أن فاتها محمد وأبو بكر ، وجعلت تَتَّبِعُ مَنْ بَقِيَ من أصحاب محمد ، تحبسهم عن الهجرة ، وَتُمْسِكُهُمْ في العذاب ، وَتَقْتَنِيهِمْ في دينهم ، وَتَصُدُّهُمْ عن سبيل الله . وكان صهيب من الذين حبسهم قريش . يقول

له أبو جهل وقد ورم أنفه وذهب به الغيظ كل مذهب : أتيتنا
صُعلوكا حقيراً لا تملك من الدنيا شيئاً ، فأثريت عندنا وأصبحت
ذا مال ، ثم أنت تريد أن تفوتنا بمالك ونفسك إلى محمد وأصحابه !
قال صُهيب : فإن خَلَّيْتُ بينكم وبين مالى أَتُخَلُّونَ بينى وبين
ما أريد من الهجرة ؟ قال قوم نعم ، وقال أبو جهل : هيهات ! إن
حاجتنا إلى مالك ليست أقل من حاجتنا إلى نفسك ، فليُتَمَسِّكَنَّكَ
فى العذاب حتى نأخذ مالك ، ثم نأتى على نفسك أو تعود من ديننا
إلى ما كنت عليه . قال صُهيب وفى صوته حزن مُرٌّ : لو عاش
عبد الله بن جدعان لما بلغت منى ما ترى . قال أبو جهل : سَنُلْحِقُكَ
بعبد الله بن جدعان ، فاشكنا إليه إن شئت . أَلَسَمَ ترعون أن الناس
يُحْيَوْنَ حياة ثانية بعد حياتهم هذه الأولى ؟ ! فالتى عبد الله بن جدعان
هناك إن شئت فاشكنا إليه . قال صُهيب : هيهات ! لن ألقاه ،
قد وعدنى رسول الله الجنة وهو فى النار . قال أبو جهل وقد استأثر
به الغيظ فسطا على صُهيب وضرب فى وجهه ضرباً عنيفاً : ألا تسمعون
يا معشر تيم ! إن سيدكم عبد الله بن جدعان فى النار ، وإن عبده
هذا الرومى سيصير إلى الجنة ! ما رأيت كالיום حقاً ولا خرقاً .
ولبت صُهيب فى حبسه أياماً لا يُرْزَقُ من الطعام إلا ما يعصمه
من الموت . ولكن الإسلام كان فى ذلك الوقت قد فشا فى أحرار
مكة وزيقها ، فيحتال بعض أولئك وهؤلاء ، وإذا صُهيب قد انسلَّ
من محبسه وركب راحلته وأخذ طريقه إلى المدينة .

وعلمت قریش بأن صهيياً قد انسلَّ من محبسه ، وبأنه يوشك أن يفوتها ، فترسل في أثره الخليل . ويُدرك القوم صهيياً ولم يمض في طريقه إلا قليلاً . فلما رآهم قد أقبلوا ، وعلم أنهم يوشكون أن يأخذوه وأن يردُّوه إلى الفتنة والعذاب ، وقف لهم ، ونثر ما في كنانته من السهام ، وقال لهم في صوت الحازم المصمم : لقد علمتهم يا معشر قریش أني من أركم رجلا ، وإنكم والله لا تصلون إلى حتى أرميكم بكل ما بين يدي من سهم ، ثم أضربكم بسيفي ما بقي منه شيء في يدي . فاختاروا بين الموت وبين ما لي أدلكم عليه فتأخذونه وتخلون بيني وبين الطريق . ولم يَطْلُ تفكير قریش ولا اثمارها ، وإنما آثروا العافية والسلامة والمال ، فقالوا : قد رضينا ، فدُلُّنا على مالك ، فأنبأهم بمكانه وانصرفوا عنه . ومضى هو في طريقه حتى بلغ رسول الله وقد أدركه من الجهد والكد ومن الظم والجوع ما كاد يأتي عليه .

هاجر عبد الله بن مسعود إلى المدينة ، كما هاجر إليها غيره من المهاجرين ، فنزل على مُعَاذ بن جَبَل أو على سعد بن خيثمة ، يختلف رُؤَاة السيرة في ذلك . وأقام عبد الله عند مُضيفه حتى

خط رسول الله للناس دورهم في المدينة ، فخطَّ لبنى زُهرة في مؤخر المسجد . وقال حى منهم للنبي : نَكَّبْ عَنَا ابْنَ أُمِّ عَبْدِ ، كَأَنَّهُمْ كَرَهُوا نَزْلَهُ بَيْنَهُمْ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فَلَمْ يَبْعَثْنِي اللَّهُ إِذْنًا ! إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْدَسُ قَوْمًا لَا يُعْطَى الضَّعِيفُ مِنْهُمْ حَقَّهُ . ثُمَّ أَنْزَلَهُ مَنْزِلَهُ بَيْنَهُمْ كَرِيماً .

ولم يكد عبد الله يستقر في المدينة حتى كان أَلَزِمَ النَّاسَ لِلنَّبِيِّ وَأَشَدَّهُمْ اتِّصَالًا بِهِ فِي حَيَاتِهِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ ، يَحْجِبُهُ إِذَا دَخَلَ دَارَهُ ، وَيَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ إِذَا خَرَجَ مِنْهَا . وَكَانَ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ يَقُولُونَ : إِنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ كَانَ صَاحِبَ سَوَادِ رَسُولِ اللَّهِ وَوَسَادَهُ وَنَعْلَيْهِ وَطَهْوَرِهِ . كَانَ أَثْنَاءَ الْإِقَامَةِ يَقُومُ عَلَى حُجْرَتِهِ حَاجِبًا ، لَا يُخْفَى النَّبِيُّ عَلَيْهِ مِنْ سِرٍّ إِلَّا مَا يُؤْمَرُ بِإِخْفَائِهِ . فَإِذَا هَمَّ النَّبِيُّ أَنْ يَخْرُجَ أَلْبَسَهُ نَعْلَيْهِ وَمَشَى بَيْنَ يَدَيْهِ بِالْعَصَا ، حَتَّى إِذَا جَلَسَ نَزَعَ نَعْلَيْهِ فَأَدْخَلَهُمَا فِي ذِرَاعِهِ وَأَعْطَاهُ الْعَصَا ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ أَلْبَسَهُ نَعْلَيْهِ وَأَخَذَ مِنْهُ الْعَصَا فَشَى بِهَا بَيْنَ يَدَيْهِ حَتَّى يَبْلُغَ الْحِجْرَةَ فَيَنْحَى سِتَارَهَا ، وَيَدْخُلُ قَبْلَ النَّبِيِّ ، حَتَّى إِذَا دَخَلَهَا النَّبِيُّ نَزَعَ نَعْلَيْهِ وَخَرَجَ فَقَامَ أَمَامَ السِّتْرِ حَاجِبًا . فَإِذَا خَرَجَ النَّبِيُّ فِي السَّفَرِ فَابْنَ مَسْعُودٍ صَاحِبَ وَسَادِهِ إِذَا نَامَ ، وَصَاحِبَ طَهْوَرِهِ كَلِمًا أَرَادَ الْوُضُوءَ . وَكَانَ النَّبِيُّ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَغْتَسِلَ فِي بَعْضِ سَفَرِهِ قَامَ ابْنُ مَسْعُودٍ مِنْ دُونِهِ يَسْتَرُهُ ، حَتَّى لَمْ يَشْكُ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ كَانَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ . فَلَيْسَ غَرِيبًا إِذْنًا أَنْ يَكُونَ أَحْفَظَ النَّاسِ لِلْقُرْآنِ وَأَكْثَرَهُمْ سَمَاعًا

عن النبي . ثم أصبح بعد وفاة النبي أكثر الناس تعليماً للقرآن وأقلهم رواية لحديث النبي ، يتألم من ذلك ويخافه أشد الخوف . وكان النبي يُؤثره وَيُكَبِّره وَيُدافع عنه وَيُشَبِّد به ، حتى قال ذات يوم : لو كنت مُؤمراً أحداً دون شوري المسلمين لأمرتُ ابن أمَّ عبد . وأمره ذات يوم أن يصعد في شجرة فيجني له من ثمرها ، فلما جعل يصعد في الشجرة نظَّر أصحاب النبي إلى دقة ساقه . قال رسول الله : مم تضحكون ؟ قالوا : من دقة ساقه وموشتها فضحكوا . قال رسول الله : لهُ أثقل في الميزان من أحد . وظل صاحب سر النبي ووساده وظهوره ، حتى إذا اختار الله النبي لجواره وخرجت جيوش المسلمين غازية إلى الشام خرج فيها غازياً ، كأن مقامه بالمدينة قد شق عليه بعد أن توفى خليله . وأقام بمحصر ما شاء الله أن يقيم ، حتى حدره عمر إلى الكوفة .

أقبل النذير فلاً قلوب قريش دُعراً حين أنبأها بأن أبا سفيان يستغيثها ويستنفرها ويُعلمها أن محمداً قد خرج بأصحابه من المدينة يستعرض العير . ولم يتقدَّم النهار حتى كانت قريش قد كفرت وجعلت تُجهز جهازها للحرب ، يتنافس أشرافها في ذلك أي تنافس ، ويستبِقون

إليه أى استباق . واستيقن أبو جهل أن قد جاء الوقت الذى كان
ينتظره منذ أعوام طوال ، وأن قريشاً لن تخرج لتحجى العير فحسب ،
وإنما تخرج لتسحق محمداً وأصحابه وتريح منهم مكة ويثرب جميعاً .
وقد جاء النبأ بعد أن خرجت قريش بأن أبا سفيان قد ساحلَ بالغير^(١)
حتى أحرزها من محمد وأصحابه ، وأن قريشاً تستطيع أن تعود إلى
مكة فتتمم فيها بالسلم والعافية . ولكن قريشاً أبت أن تعود كما خرجت ،
وزيّن لها الشيطان بلسان أبي جهل أن تمضى حتى تأتى بداراً فتنزل
بها منتصرة مظهرة للعرب أنها ما زالت قريشاً صاحبة العز والنجد
والسؤدد ، ثم تنحرف فتطعم وتشرب وتطرب وتُشرك العرب في طعامها
وشربها وطربها ولحوها ، ويعلم محمد وأصحابه أن كلمة هُبلَ ما زالت
عالية ، وأن عزَّ قريش لا يُرام . وخرج سهيل بن عمرو فيمن خرج من
أشراف قريش ، وقد جعل إلى ابنه عبد الله ماله وُحْمَلَانَه^(٢) يسعى بها
بين يديه . وكان سهيل قد فُتن في دينه حين عاد من هجرته إلى
أرض الحبشة ، أخذه أبوه فأوثقه وحبسه وفتنه حتى استيقن أنه قد
عاد إلى دين آبائه وأثر قريشا على محمد . فلما خرج مع الملائ
من قريش قد تم ابنه بين يديه فخوراً به معتمداً عليه . وتراءى
الجمعان ببدر ، ونظرت قريش فإذا محمد فى قلة من أصحابه ، فامتألت
عجباً وتهاً . ونظر النبي فإذا قريش قد أقبلت بقصصها وقضيضها ،

(١) أى ذهب بها إلى ساحل البحر .
(٢) الحملان : ما يحمل عليه من
الدواب فى الهبة خاصة .

فاستنجز الله وعده واستنزل نصره وتضرع إليه في أن يُشَبِّت قلوب المؤمنين . وتداني الجمعان .

ولكن قريشا تنظر فترى عجباً ، ولكن المسلمين ينظرون فيرون عجباً : ترى قريش فتي من أقوى شبابها قوةً وأنضرهم نضرةً وأشدهم بأساً ، يخرج من صَفِّها وينحاز إلى محمد . ويرى المسلمون والمهاجرون منهم خاصة صديقاً لهم قد عرفوه وأحبوه ، ثم حزنوا عليه حين ظنوا ، كما ظنت قريش ، أنه قد عاد إلى دين آبائه . وتتساءل قريش عن هذا الفتى ، وتتساءل كثرة المسلمين عن هذا الفتى ، ثم يعرف أولئك وهؤلاء أنه عبد الله بن سهيل بن عمرو ، خدع المشركين عن أنفسهم وعن نفسه ، وانتفع بما أنزل الله في أمر عمار بن ياسر : « مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ، وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صُدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » .

فهو لم يكفر بقلبه ، ولم يشرح بالكفر صدرًا ، ولكنه وجد قلبه كما وجد عمار قلبه حين فتنته قريش مطمئناً بالإيمان . وقد قال النبي لعمار : إن عادوا فعد ، وفهم عبد الله بن سهيل آية القرآن وحديث النبي على وجهيهما . فلما أحس الفتنة من أبيه أظهر له ولقريش ما أرضاهم ، وأخفى عليه وعلى قريش ما أرضى الله . وما هو ذا يخرج من صفوف قومه وينحاز إلى صف المسلمين ، ثم يسعى حتى يبلغ النبي فيهدى إليه سلامه ويتلقى منه بركته . ثم يخرج إلى

أصحابه من المهاجرين فيزحف معهم لقتال قريش وفيهم أبوه .
ويلقى أثناء الزحف أبا حذيفة بن عتبة ابن ربيعة زوج أخته سهلة ،
فإذا قص عليه قصته أثنى أبو حذيفة عليه وقال خيراً ، ولم يزد على ذلك
شيئاً . وقد تدانى الجمعان ، حتى لم يبق إلى تدانيهما سبيل إلا بسيف
أو رمح . ولكن قريشاً تنظر فترى عجباً ، والمسلمون ينظرون فيرون
عجباً : يرون فتي يصول في الميدان بين الصنفين يدعو عتبة بن ربيعة
للمبارزة . ويخرج عتبة للفتى ، ولكنه لا يكاد يراه حتى ينصرف عنه ،
وقد ملأ الغيظ قلوب قريش وملأ الإعجاب قلوب المسلمين :
رأى أولئك وهؤلاء أبا حذيفة يدعو أباه للمبارزة . ويبلغ هند
بنت عتبة وزوج أبي سفيان أن أباهما وأخاها الوليد وعمها شبة قد
قُتلوا ، وأن أخاها أبا حذيفة قد دعا أباه للقتال ، فتقول في هذا
كله فتكثر القول ، وتهجو أخاها أبا حذيفة بهذين البيتين :

الأحول الأثعل المشثوم طائرهُ أبو حذيفة شرُّ الناس في الدين
أما شكرتَ أبا ربّاك من صِغَرٍ حتى شببتَ شاباً غيرَ محجّون
وشهد الواقعة فيمن شهدا من المهاجرين عبد الله بن مسعود ،
وكان خفيفاً نحيفاً ضئيل الشخص قليل اللحم موفور النشاط سريع
الحركة ، لا يكاد يُرى في مكان حتى يُرى في مكان غيره ،
شأنه في قريش المحاربة كشأنه في قريش بمكة حين كانت تفتن
المسلمين ، وهو يعدو هنا ويعدو هناك ، ويطير في الميدان من
مكان إلى مكان . وإنه لفي بعض ذلك وإذا هو يرى ابني عفراء

قد صرعا أبا جهل وأثبتاه (١) ، فيسرع إليه ابن مسعود ويدركه
 وفيه رمقٌ يُتيح له أن يرى وأن يسمع وأن يعقل ، ويُتيح له أن يتكلم
 في بعض الجهد . فيجلس ابن مسعود على صدره وهو يقول : ها قد
 أخزأك الله يا عدو الله ! قال أبو جهل في صوته المتهاك المنقطع :
 ها أنت ذا يا راعي الغنم ! لقد ارتقيت مرتقى صعباً . قال ابن مسعود :
 لقد أخزأك الله بما قدّمت إلى المسلمين من شر ، فذُقْ عذاب
 الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشدُّ بأساً وأعظم تنكيلاً . ثم يَحْتَزُّ رأسه ،
 ثم يمضى خفيفاً مسرعاً ، فينبئ النبي بمقتل أبي جهل . قال النبي :
 الله الذي لا إله غيره ! قال ابن مسعود : الله الذي لا إله غيره ؛
 فكبرَ النبي وكبرَ مَنْ حوله من المسلمين . ووقف النبي بعد ساعة
 على صرعى قُرَيْشٍ وقد ألقوا في القليب فقال : « يأهل القليب
 هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً . »
 قال بعض أصحاب النبي : إنهم مَوَى يا رسول الله . قال : « إنهم
 ليسمعون كما تسمعون إلا أنهم لا ينطقون . »

٢٠

كان بلال من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وكان أول
 من أذن في الإسلام ، وقد جعل النبي الأذان إليه حين نُظِّمَتْ
 (١) أثبتاه : جراحه جراحة لا يتحرك منها ولا يقوم بعدها .

جماعة المسلمين . وليس من شك في أن قد كان بين العرب من المهاجرين والأنصار من كان أندى صوتاً من بلال ، وربما كان بينهم كذلك من كان أفصح منه لغة وأنصح منه منطقاً ؛ ولكن الله يؤتي فضله من يشاء . وقد عرف رسول الله لبلال سببقه إلى الإسلام وسبقه إلى الأذان ، فجعله صاحب أذانه ما أقام في المدينة ، فإذا غاب عنها أذن مكانه أبو محذورة ، فإذا غاب أبو محذورة وبلال أذن مكانهما عمرو بن أمّ مكتوم . وكان بلال يتحرى الوقت بالأذان فلا يؤخره ، فإذا فرغ من أذانه أقبل حتى وقف على باب رسول الله ليؤذنه ، وقال : حَيَّ عَلَى الصَّلَاة ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاح . الصلاة يا رسول الله . ثم تنحى وقام . ينتظر . حتى إذا خرج رسول الله ورآه بلال أخذ في الإقامة . وكان بلال يسعى بالعنزة^(١) بين يدي رسول الله في العيدين وفي الاستسقاء ، حتى إذا بلغ المصلى ركز العنزة بين يدي رسول الله فصلى إليها .

وكان النبي يحب بلالاً أشد الحب ويكبر من شأنه ، ويريد أن يكبر الناس من شأنه . جاءته أسرة عربية تطلب إليه أن يزوج ابنتها من رجل عربي سمته ، فقال لهم النبي : فأين أنتم عن بلال ؟ فانصرف القوم من يومهم ذاك ولم يقولوا شيئاً . ثم أقبلوا من غد على النبي فطلبوا إليه ما طلبوا أمس ، فقال لهم مثل ما قال أمس : أين أنتم عن بلال ؟ فانصرف القوم ولم يقولوا شيئاً . ثم أقبلوا

(١) العنزة هنا : رمح صغير فيه زج (حديدة في أسفله يركر بها) .

من الغد فطلبوا إليه ما طلبوا إليه أمس وأول من أمس ، فقال لهم
 مثل ما قال في المرة الأولى وفي الثانية : أين أنتم عن بلال ؟ ثم زاد :
 أين أنتم عن رجل من أهل الجنة ؟ فزوجه . وعرف الناس أن رسول الله
 لا يمايز بين المسلمين إلا بالتقوى والعمل الصالح وما يقدمون بين
 أيديهم من الحسنات . وأكبر الناس بلالا كما أكبره رسول الله ،
 حتى كان عمر بن الخطاب يقول : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا .
 يريد بلالا . وكان هذا كله خليفاً أن يرضى بلالا عن نفسه شيئاً ،
 ولكن بلالا لم يرض عن نفسه قط ، وإنما كان صادق التواضع
 مستصغراً لنفسه مهما يفعل . أقبل مرة يريد الأذان ، فأحس
 شيئاً من رضا عن نفسه ، فغاضه ذلك وأنطقه بكلام كان يريد أن يكون
 شعراً فلم يستطع ، أصاب الوزن وأخطأ القافية :

ما لبلال ثكلته أمه^{هـ} وابتل^ل من نضح دم جبينه^{هـ}

وكان ناس من المسلمين يأتون بلالا فيحدثون إليه^{هـ} ويذكرون
 ما آتاه الله من الفضل وما اختصه به من الكرامة ، فلا يزيد على
 أن يقول : إنما أنا حبشي وقد كنت بالأمس عبداً .

وأقبل المسلمون يوم الفتح فدخلوا مكة ظافرين ، وثابت قریش
 إلى الإسلام طوعاً أو كرها ، وعفا رسول الله عن مسيئها ، وقال
 لهم مقالة يوسف لإخوته : « لا تريبَ عليكم اليوم يغفر الله لكم
 وهو أرحم الراحمين » . وحطّم الأصنام وطهّر الكعبة وأخلصها لله
 عز وجل ، ثم قال لبلال : اصعدْ فأذن على ظهر الكعبة .

وصعيد بلال فأذن على ظهر الكعبة والحارث بن هشام وصنفوان بن أمية قاعدان ؛ يقول الحارث بن هشام لنفسه في أعماق نفسه : كيف لو رأى أخى عمرو بن هشام بلالا هذا قائماً على ظهر الكعبة ؟ ويقول صنفوان بن أمية لضميره في أعماق ضميره : كيف لو رأى أبى أمية بن خلف هذا العبد الذى طالما عذّبه وأدّبه قائماً على ظهر الكعبة ؟ ولو استطاع الرجلان لاكتفى كلُّ منهما بالحديث إلى نفسه ، ولكنهما يريان الكعبة وقد زال عنها هَيْبَلٌ وزالت عنها اللَّاتُ والعُزَّى ومناة الثالثة الأخرى ، وقام على ظهرها حبشىٌّ يُعلن دين محمد إلى قوم طالما حاربوا محمداً وأصحابه ، وليس منهم الآن إلا من يستجيب لدعوة محمد راضياً أو كارهاً .

ينظر الرجلان إلى الكعبة وقد طُهرت من الأوثان ، وإلى هذا الحبشى القائم على ظهرها ، فلا يملك أحدهما إلا أن يهمس في أذن صاحبه : ألا ترى إلى هذا الحبشى ؟ قال ذلك في صوت تملؤه الحسرة . ويحييه صاحبه في صوت خافت تشيع فيه السخرية المرة : إنْ يَكْرَهُهُ الله يُغَيِّرْهُ . وبلال قائم على ظهر الكعبة يرفع صوته الندى قائلاً : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . وأذن بلال في المدينة للمسلمين ، فاستجابت له قلوبهم محزونة ، وأغرقت جماعتهم في نحيب مرّ ارتجّ له المسجد حين قال بلال وصوته يكاد يحتبس في حلقه « وأشهد أن محمداً رسول الله » . وذلك أن النبی كان روحه قد انتقل إلى الرفیق الأعلى ، وكان جسمه

لم يُقْبَر بعدُ . فلما دفن صلى الله عليه وسلم وتَمَّت البيعة لأبي بكر ، قام إليه بلال فقال : أَيْ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ ! إِنْ كُنْتَ قَدْ اشْتَرَيْتَنِي لِنَفْسِكَ فَأُمْسِكْنِي ، وَإِنْ كُنْتَ قَدْ اشْتَرَيْتَنِي لِلَّهِ فَذَرْنِي وَعَمِلِي لِلَّهِ . قال أبو بكر : ما تشاء يا بلال ؟ قال بلال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر أن أفضل عمل العبد جهاده في سبيل الله ، فخلّ بيني وبين الجهاد .. وأراد أبو بكر أن يردّه عن نيته تلك فلم يستطع . وانصرف بلالٌ إلى الشام ، فربط فيها غازياً حتى توفّي في دمشق عام عشرين .

وأقبل عمار بن ياسر إلى المدينة مهاجراً، فنزل على مُبَشَّر بن عبد المنذر ، وأتخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين حذيفة ابن اليمان . وأقام عمار عند مُبَشَّر حتى أقطعه رسول الله موضع داره ، وحتى بناها ثم انتقل إليها . وكان عطف النبي على عمار شديداً وحبّه له قوياً عميقاً . وكان عمار يحس هذا الحب وذلك العطف . فیدفعه هذا الإحساس إلى تحمس في الإسلام كان يمتاز به من أكثر المسلمين ، حتى كانت الأنظار تتجه إليه ، وكانت النفوس كثيراً ما تفكر فيه ، وربما لمجت

به بعض الألسنة أحياناً . وكان عمار يتحامل على نفسه ويأخذها من الجهد في سبيل الله بأكثر مما كانت عامة المسلمين تأخذ به أنفسها . أخذ رسول الله في بناء مسجده واشترك المسلمون في هذا البناء ، يرون اشتراكهم فيه خيراً لأنفسهم وبراً بها ، ولم يكن رسول الله أقلهم جهداً ولا أيسرهم عناء في هذا البناء ؛ فكان يحمل معهم اللبن^(١) حتى يغبر وجهه الكريم وحتى يكثر عليه التراب . وكان المسلمون يحملون اللبن كَبِيتَةً كَبِيتَةً إلاماراً فكان يحمل لبتين لبتين ، وكان ينفق في ذلك من النشاط والمرح والرضا ما كان يملأ قلوب المسلمين إعجاباً به ، وقلوب المنافقين حقداً عليه . وكان يحمل لبناته وهو يتغنى : « نحن المسلمون نبني المساجد » وكان رسول الله يرد عليه فيقول : « المساجدا » . وربما رق قلب رسول الله لعمار فيُقْبِل عليه ويرْفُق به ويتلطف له ويمسح عن وجهه وصدره التراب ، حتى قال له ذات يوم وهو يمسح التراب عن وجهه : « ويحك ابن سُمَيَّة ! تقتلك الفئة الباغية ! » . ووقعت هذه الكلمة من قلوب المسلمين موقعاً غريباً ، فنُقِشت في ضمائرهم وملأت نفوسهم هيبه لعمار وإكباراً له . ولم يقتل النبي هذه الكلمة لعمار مرة واحدة ، وإنما قالها له فيما يظهر غير مرة : قالها له أثناء بناء المسجد ، وقالها له بعد سنين حين احتفر الخندق . وكان بلاء عمار في حفر الخندق مُضاعفاً كبلائه في بناء المسجد . وكان النبي يعمل مع أصحابه في حفر الخندق

(١) اللبن : الطوب النى .

كأحد منهم يحمل التراب والحجارة ويتغنى وهم يردّون عليه :
 « لَأُهِمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشَ الْآخِرَةِ ، فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ » .
 وأقبل مقبل فزعم أن حائطاً سقط على عمار فمات ، فقال
 النبي : لم يمّت عمار . ثم اتى عماراً فقال له : « وَنَحْنُ ابْنُ سُمَيَّةَ !
 تقتلك الفئة الباغية ! » وملاّت هذه الكلمة قلب عمار يقيناً وثقة
 وحرصاً على أن يعمل صالحاً ما وسعه العمل ، وعلى أن يجتنب
 الفتنة ما وسعه اجتنابها . وكان يطيل الصمت ولا يتكلم إلا حين
 لا يكون من الكلام بُدٌّ ، وكان كثيراً ما يقطع صمته بهذه الكلمات :
 عائذُ بالله من فتنة ! عائذُ بالله من فتنة ! ثم يعود إلى صمته العميق .
 وأقبل خالد بن الوليد ذات يوم بعد أن أسلم ، فكان بينه
 وبين عمار شيء من خصومة ، فأغلظ خالد لعمار في القول —
 وكأنه ذكر سُمَيَّةَ التي كانت أمةً لعمه أبي حذيفة ، ويأسر الذي
 كان حليفاً لعمه أبي حذيفة ، وكأنه ذكّر عماراً بأنه عتيق عمه
 أبي حذيفة ، وكانت في خالد بقية من كبرياء مخزوم ، وكان
 فيه فضلٌ من صلّاف قريش — فجاء عمار إلى النبي صلى الله
 عليه وسلم يشكو خالداً . وأقبل خالد أثناء ذلك فيجعل يقول لعمار وعمار
 ساكت والنبي مطرق . ثم رفع النبي رأسه وقال في صوته الوداع العذب
 الذي ينفذ إلى القلوب : « مَنْ عَادَى عَمَاراً فَقَدْ عَادَانِي . » فخرج عمار
 كأرضي ما يخرج الناس ، وخرج خالد مهموماً مغتماً كئيب النفس .
 فلم يسترح حتى أرضى عماراً ووثق بأنه عفا له عما أسلف إليه من سوء .

عادت العرب إلى كفرها بعد وفاة النبي ، وجدّ أبو بكر وجدّ معه الأنصار والمهاجرون في ردهم إلى الإسلام طائعين أو كارهين . وخرج خالد بن الوليد بجيش أبي بكر إلى اليمامة يقاتل مُسَيْلَمَةَ وَيَرْدَ بْنَ حَنِيفَةَ إلى الإسلام . والتقى المسلمون وأهل الرِّدَّة ، فكانت بينهم موقعة من أشد ما عرف المسلمون من المواقع . وكان في الجيش أربعة نفر كلهم شهد بدرًا وأحدًا للمشاهد كلها مع رسول الله : عمار بن ياسر ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وابنه قديمًا ومولاه حديثًا سالم بن سالم ، وأخو امرأته عبد الله بن سهيل بن عمرو . وقد انكشف المسلمون وكادت الدائرة تدور عليهم ، ولكن الناس يرون هؤلاء نفر قد ثبتوا في أماكنهم لا يريمون . فأما سالم فجعل يصيح بالناس : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ! ثم احتفر حفرة فأثبت فيها قدميه ، وصنع أبو حذيفة وعبد الله ابن سهيل صنيعه ، فاستشهدوا جميعاً في أماكنهم .

وأما عمار فقد رآه الناس قائماً على صخرة وقد قطعت أذنه فهي تتدبذب ، وهو يصيح بالمسلمين : إلى أيها المسلمون أنا عمار بن ياسر ، أمن الجنة تفرّون ! وما زال بهم يدعوهم وقد ثبت على صخرته

لا يزول حتى تاب إليه المسلمون وأنزل الله عليهم نصره . وبلغ أبا بكر موت سالم ، فيدفع ثرائه إلى صاحبة ولائه ثبينة ، فترده وتقول : سييته لله عز وجل . فإذا وليَ عمر الخلافة دفع ثراث سالم مرة أخرى إلى ثبينة صاحبة ولائه ، فترده وتقول : سييته لله عز وجل . ويضعه عمر في بيت المال .

وأقبل أبو بكر في أثناء خلافته حاجاً . فلما دخل مكة جاءه سهيل بن عمرو مسلماً ، فعزاه أبو بكر بابنه عبد الله الذي قتل في الإمامة شهيداً . قال سهيل : لقد بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يشفع الشهيد لسبعين من أهله ؛ فأنا أرجو ألا يبدأ ابني بأحد قبلي .

٢٣

لم يكد عمر ينهض بأمور المسلمين بعد صاحبيه حتى مضى في سياسة الفتح التي ابتدأها من قبله لم يهين ولم يضعف ، ولم يُتَسمح لأحد من الناس أن يهين أو يضعف ، وإنما رمى العالم القديم المتحضر بشِقْل العرب ، فلم يثبت له ذلك العالم المتحضر إلا ريثما تداعى ثم انهار . وكان عمر لا ينام ولا يُنيم ، وإنما كان يقظاً دائماً ، موقظاً دائماً ، عاملاً دائماً ، دافعاً غيره إلى العمل . وقد فتح عمر

للذين أسلموا بأخرة من عامة العرب ومن خاصة قريش أبواب
 الجهاد على مصاريعها ، وألقى في رُوعهم جميعاً أن من فاتته ثواب
 الغزو مع النبي صلى الله عليه وسلم فلم يشهد معه بدرّاً ولا أحدّاً
 ولا الخندق ولا غيرها من المشاهد ، فإن أمامه ملك الروم وفارس
 يستطيع أن يستدرك فيهما ما فاتته من حسن البلاء . وأى بلاء أحسن
 من أن يكون الرجل قد تقدمت به السن ، والرجل لم يكد يخرج
 من شبابه ، والفتى لم يكد ينضو عنه ثوب الصبا ، وسيلة إلى تحقيق
 وعد الله عز وجل وتصديق قوله : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ
 مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ
 مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا » .

لقد اندفعت العرب حين دفعها عمر ، فلم تجد أمامها صعوبة
 إلا قهرتها ، ولا عقبة إلا ذلتها ، ولا مقاومة إلا جعلتها هباء .
 ولم يكن أصحاب رسول الله والذين شهدوا معه المشاهد منهم
 خاصة أقلّ اندفاعاً إلى الجهاد واستباقاً إلى الغزو من الذين أسلموا
 بأخرة . ولم يكن عمر يصدهم عن ذلك أو يردّهم عنه ، وإنما كان
 يُخلى بينهم وبين ثواب الله يطلبونه ما وجدوا إليه سبيلاً ، إلا أولئك
 الأشراف من قريش ، فإنه أمسكهم في المدينة ولم يأذن لهم بالخروج ،
 خاف من عامتهم على الناس ، وخاف على خاصتهم من الفتنة .
 وكان أشراف الصحابة من قريش إذا أراد أحدهم أن يخرج للجهاد

أبى عليه عمر ، وقال : قد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يجزئك .

أما المستضعفون من أصحاب النبي من قريش ومن غير قريش فلم يخفَ عمر منهم ، ولم يخف عليهم فتنة ، فختلى بينهم وبين ما أرادوا من الجهاد وما ابتغوا من فضل الله . وكذلك انطلق بلال وأبو ذر وابن مسعود إلى الشام ، وانطلق غيرهم إلى العراق . وأقام في المدينة من أمسكه ضعف الجسم أو أمسكته سياسة عمر . وأقبل خبّاب بن الأرت ذات يوم مُسَلِّحاً على عمر ومستأذنًا في أكبر الظن في اللحاق بجيش من جيوش العراق ، فبهش له عمر ويستدنيه ويُجلسه على مُتْكته ويقول : ما على الأرض أحدٌ أحقّ منك بهذا المجلس إلا رجلاً واحداً . فيقول خبّاب : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : بلال . وروى بعضهم أنه قال : عمار بن ياسر . قال خبّاب : ما هو بأحقّ مني ؛ لقد كان له من قريش من يمنعه ويقوم دونه ، فأما أنا فلم يكن لي أحد ، ولقد رأيته ذات يوم أخذوني ثم أوقدوا لي ناراً فسلقوني فيها ، ثم يُقبل رجل فيضع رجله على صدرى ، فوالله ما اتقيت برّد الأرض إلا بظهرى . ثم يرفع رداءه ليُرى عمر ما بقى في ظهره من آثار العذاب . وينظر عمر وينظر من حضر من المسلمين ، فيرون شراً مُروّعاً : يرون أن ظهره قد برّص .

لم تمنعه الفتنة من أن يشهد مع رسول الله بداراً وأحدًا

والخندق والمشاهد كلها . ثم لم يكفِه ذلك حتى أبى إلا أن يجاهد ، كأنه رأى أنه لم يلقَ في سبيل الله مع هذا كله ما ينبغي أن يلقى من الجهد والمشقة والعناء . وقد انحدر إلى العراق فغزا مع الغازين ، وجاهد مع المجاهدين ، ورابط في الكوفة حتى أدركته الشيخوخة واشتد عليه الداء . وأقبل نفر من أصحاب رسول الله يعودونه ، وقد اكتوى في بطنه سبع كيات ، وبرَّح به الألم كل تبريح . فلما دخلوا عليه رأوا رجلاً مُروَّعاً قد ملك الخوف والحزن عليه أمره . يقول لعوده من أصحاب النبي : لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا أن نتمنى الموت لتميته . ثم يسكت صوته ويسكن جسمه وتَهْل دُمُوعه على وجهه غزراً . فيعزيه عواده من أصحاب النبي يقولون له : أبشِّرْ أبا عبد الله ! إخوانك فلان وفلان وفلان ، تقدّم عليهم غداً . فيُغْرِقُ في البكاء حتى ما يستطيع كلاماً ، ثم يثوب إليه شيء من هدوء فيقول في صوته الضعيف النحيب المتقطع : أما إنه ليس بي جزع ، ولكن ذكرتوني أقواماً وسميتهم لي إخواناً ، وإن أولئك مَضَوْا بأجورهم كما هي ، وإني أخاف أن يكون ثواب ما تذكرون من تلك الأعمال ما أوتينا بعدهم . ثم تأخذه غشية تكفّ لسانه عن النطق حتى يُظَنّ أنه قد قضى أو كاد . ثم يُرَدُّ إليه شيء من حياة ، فينظر فإذا كفه قد أحضر ، وإذا هو من قَبِاطِي ، فيبكي ويقول : لكن حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم كُفِّنَ في بُرْدَةٍ ، فإذا مُدَّت

على قدميه قَلَصَتْ عن رأسه ، وإذا مُدَّتْ على رأسه قَلَصَتْ
 عن قدميه ، حتى يُجْعَلَ عليه إِذْخِرٌ^(١) . ولقد رأيتني مع رسول
 الله صلى الله عليه وسلم ما أملك ديناراً ولا درهماً ، وإن في ناحية
 بيتي في تَابُوتِي^(٢) لأربعين ألف واف ، ولقد خَشِيتُ أَنْ تكون
 قد عَجَلَّتْ لَنَا طيِّبَاتُنَا في حياتنا الدنيا . يقول بعض أولئك الرهط
 لبعض حين انصرفوا عنه : ألا ترون إلى خَسْبَابٍ على كثرة ما احتمل
 وعلى كثرة ما عمل يخشى أَنْ يلقي الله فقيراً ليس له كبير حظ من
 الصالحات ! فيقول قائلهم : وما يرييكم من ذلك ؟ ألم تعلموا أَنَّ النبي
 صلى الله عليه وسلم قال للمرأة التي زعمت أَنَّ الله قد أَكْرَمَ
 عثمان بن مظعون بعد موته : « وما يُدْرِيكَ أَنَّ الله قد أَكْرَمَهُ !
 إني لرسول الله وما أدرى ما يُفْعَلُ بي ! » .

ولم يمنع المرض المجمع ولا الحزن اللاذع ولا الخوف من لقاء
 الله خباباً مَنْ أَنْ يكون مُعَاسِماً نَاصِحاً للمسلمين حتى في آخر عهده
 بالدنيا وأول عهده بالآخرة . كان الناس يدفنون موتاهم في جباينهم
 قريباً من دورهم ، فيقول خباب لابنه حين أَحْسَسَ الموت : يَا بُنَيَّ
 إِذَا أَنَا مُتُّ فَادْفَنِي بهذا الظاهر ؛ فَإِنَّ الناسَ إِنْ رَأَوْا ذَلِكَ قَالُوا صَاحِبُ
 مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دُفِنَ بِظَهْرِ الْكُوفَةِ ،
 ثُمَّ دَفِنُوا مَوْتَاهُمْ خَارِجَ الْمَدِينَةِ .

(١) الإذخر : الحشيش الأخضر ، وحشيش طيب الريح .

(٢) التابوت : الصندوق .

ومات خباب وصلى عليه على رحمة الله ، وُدفن بظاهر الكوفة ؛
فدفن الناس موتاهم حول قبره .

٢٤

مضى صهيب بعد الإسلام على ما كان يمضى عليه من سيرته
في الجود والكرم قبل أن يُسلم . وكثر المال عنده بعد الفتوح ،
فكثُر عطاؤه ونِسخاؤه ، حتى تحدث بأمره الناس . وكان لا يستقبل
ليلةً إلا جمع خلقاً من الناس كثيراً حول طعام كثير . فجعل الناس
يذكرون كرم أبي يحيى ونِسخاء أبي يحيى وبرّ أبي يحيى . وسمع ذلك
عمر فقال : من أبو يحيى هذا الذى يذكرون ؟ قالوا : صهيب .
قال : لصهيب ابنٌ يُكَنَّى به ؟ قال الناس : إنه يكنى أبا يحيى ،
وإنه يُطعم الطعام الكثير ، كما كان أجواد العرب من قومه يفعلون .
قال عمر : وإن صهيباً لمن العرب ؟ قالوا : بذلك يحدثنا . فسكت
عمر ولم يقل شيئاً . حتى إذا كان ذات يوم في المسجد والناس من
حوله كثير وفيهم صهيب ، دعاه إليه وقال له : مالك تُكَنَّى أبا يحيى
وليس لك ولد ، وتقول إنك من العرب وأنت رجل من الروم ، وتُطعم
الطعام الكثير وذلك سرفٌ في المال ؟ فقال صهيب : إن رسول الله
صلى الله عليه وسلم كنانى أبا يحيى . وأما قولك في النسب

وَدَعَانِي إِلَى الْعَرَبِ فَإِنِّي رَجُلٌ مِنَ النَّمْرِ بْنِ قَاسِطٍ مِنْ أَهْلِ الْمَوْصِلِ ،
 وَلَكِنْ سُبَيْتٌ ، سَبَتَنِي الرُّومُ غُلَامًا صَغِيرًا بَعْدَ أَنْ عَقَلْتُ أَهْلِي
 وَقَوِي وَعَرَفْتُ نَسَبِي . وَأَمَّا قَوْلُكَ فِي الطَّعَامِ وَإِسْرَافِي فِيهِ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ : « إِنْ خِيَارَكُمُ مِنْ أَطْعَمِ الطَّعَامِ
 وَرَدَ السَّلَامُ » ؛ فَذَلِكَ الَّذِي حَمَلَنِي عَلَى أَنْ أَطْعِمَ الطَّعَامَ . فَسَكَتَ
 عَنْهُ عَمْرٌ .

وعاش صهيب ما عاش خير مثل للمسلم كما صورهُ رسول الله
 حين قال : « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ » . ولم
 يكن يعطى الناس من نفسه إلا خيراً ، كان يجود عليهم بماله وعلمه
 جميعاً ، لا يتحفّظ في الجود بالمال ، ولا يتحفّظ في الجود بالعلم ،
 إلا بواحدة ، كان شأنه فيها شأن الخيار من أصحاب محمد صلى
 الله عليه وسلم : لم يكن يحب أن يتحدث عن النبيّ مخافة أن يخطئ
 الحديث . وكان يقول للناس : هَلُمُّوا أَحَدَ نَكْمٍ عَنْ مَغَازِينَا ، فَأَمَّا
 أَنْ أَقُولَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا .

ولم يكن لصهيب أيام أبي بكر وعمر إلا شأن الرجل الخير الكريم
 من المهاجرين . ولكن عمر رحمه الله يُطْعَنُ ذات صباح ،
 وينظم أمر الشورى حين أحسن الموت ، ويأمر فيما يأمر به أن تكون
 صلاة المسلمين إلى صهيب ثلاثاً حتى يختار أهل الشورى للمسلمين
 إماماً .

وينظر المهاجرون والأنصار ، فإذا صهيب يصلى بهم المكتوبات

بأمر عمر . فإذا حضرت جنازةُ عمر قدّموا صهيباً فصلّى بهم عليه .
 فقد كان صهيب إذن إماماً للمسلمين حتى فرغ أهل الشورى
 من تشاورهم ، لم ينكر المهاجرون والأنصار من ذلك شيئاً . ولكن
 نفرّاً من شباب قریش جعلوا يتحدثون بذلك فيما بينهم ، ولم يكن
 شباب قریش يألّفون عمر ولا يطعنون إلى سيرته ، لشدة على قریش
 ولشدته في الحق عامة . ويقول بعض أولئك الشباب لبعض : ألم
 تروا إلى عمر يقدّم هذا الرومي ليصلي بالمهاجرين والأنصار ، وقد
 كان صهيب عبداً لرجل من قریش ؟ فيقول آخر : الحمد لله على
 أنه لم يزد على أن يجعل إليه الصلاة حتى يختار هؤلاء الرهط منهم
 إماماً ؛ فقد كان خليقاً أن يستخلفه وأن يجعل إليه إمرة المؤمنين .
 قال فتى آخر : ويحك ! إنك لتسرف في الظن ، وإن بعض الظن
 إثم . ما كان عمر ليستخلف على المسلمين مولى لعبد الله بن جدعان
 من سبي العرب أو من سبي الروم ، قال صاحبه وهو يضحك
 ضحكة ساخرة : ألم يبلغك أن عمر قال : لو كان أبو عبيدة
 ابن الجراح حياً لاستخلفته ، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً
 لاستخلفته ! وهل كان سالم مولى أبي حذيفة إلا رقيقاً فارسياً من أهل
 إصطخر ؛ فإذا تمنى عمر أن يستخلف على المسلمين عبداً فارسياً
 فما يمنعه أن يستخلف عليهم عبداً رومياً ؟ قال أحدهم وقد ثار مغضباً :
 ما رأيت كاليوم رجوعاً إلى الجاهلية الأولى . وبلکم ! أمسلمون
 أنتم صادقون في إسلامكم أم منافقون ؟ رحم الله عمر ! والله ما عرفناه

إِلَّا بَرًّا صَادِقَ النَّصِيحِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ . أَلَمْ تَقْرَعُوا قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ
شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ خَبِيرٌ » !

وتفرق أولئك الفتية وقد ثاب بعضهم إلى الحق والهدى ؛ وأسرَّ
بعضهم الآخر في نفسه أن السلطان عربي لا ينبغي لأحد — ولو
كان عمر — أن يصرفه عن العرب وعن قریش خاصة إلى الفرس
أو إلى الروم . وكان تفكير هؤلاء الفتية وقوم كثير أمثالهم مصدر شرٍّ
عظيم للمسلمين .

٢٥

أقام عبد الله بن مسعود بِحِمْنَصَ بعد أن فُتحت على المسلمين
ما شاء الله أن يقيم ، مرابطاً في سبيل الله . ولكن المهاجرين والأنصار
من أقام في المدينة ينظرون ذات يوم فإذا هو بين أظهرهم في المسجد ،
فيستبقون إليه مسلمين عليه ، ويسألونه عن مَقْدَمِهِ فيقول : ما أدرى ،
وإنما دعاني أمير المؤمنين فقدمتُ . ثم يلقى عمر عبد الله بن مسعود
فيخاؤا إليه ، ويخلو من بعده إلى عمار بن ياسر ، ويخلو من بعدهما
إلى عثمان بن حُثَيْفٍ ثم يُعلن إلى المسلمين في أعقاب صلاة من

الصلوات أنه قد جعل صلاة الكوفة وحررها إلى عمار بن ياسر ،
 وأنه قد جعل بيت مال الكوفة وتعليم أهلها إلى عبد الله بن مسعود ،
 وأنه قد جعل سواد الكوفة إلى عثمان بن حنيف . فأما أصحاب السابقة
 من المهاجرين والأنصار فيسمعون ويعرفون في سرائر نفوسهم وفي
 ظاهر سيرتهم . وأما الذين أسلموا بأخرة من أشرف قريش فيسمعون
 ويُطيعون وينصرفون وفي نفوسهم شيء . يقول أحدهم لصاحبه :
 غفر الله لعمر ! ماذا صنع بقريش ! ألا ترى إليه يجعل إمرة الكوفة
 لابن سبيّة ، ويجعل بيت مالها وتعليم أهلها لابن أمّ عبد ؛ وأين هو
 عن أشرف قريش وعن السابقين الأولين من المهاجرين ! فيقول
 له صاحبه : أَمْسِكْ عليك نفسك ، لا يبلغ عمر من حديث
 هذا شيء فيظن بك النفاق ويؤدبك أدباً لا تحبه . إنك لحديث
 عهد بالإسلام ، وما أراك قرأت من القرآن إلا قليلاً . ألم تسمع
 قول الله عز وجل : « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا
 فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي
 الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا
 يَحْذَرُونَ » ! فإن عمر لم يزد علي أن أنجز بعض وعد الله عز وجل
 لبعض هؤلاء المستضعفين في الأرض . قال صاحبه وقد أظهر الرضا :
 هو ذاك .

وانتهى عمار بن ياسر وابن مسعود وعثمان بن حنيف إلى الكوفة ،
 واجتمع أهلها في المسجد ، فقرأ عليهم كتاب عمر ، فإذا فيه :

« أما بعد ، فإني بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً ، وابن مسعود مُعَلِّماً ووزيراً ، وقد جعلتُ ابن مسعود على بيت مالكم ، وإنيهما لمن النجباء من أصحاب محمد من أهل بدر ، فاسمعوا لها وأطيعوا واقتدوا بهما ، وقد آثرتكم بآبى أمّ عبد على نفسي ، وبعثت عثمان بن حنيف على السواد ، ورزقهم كل يوم شاة ، فاجعلوا شطرَها وبطنها لعمار ، والشرط الباقي بين هذين الرجلين . » وقد سمع أهل الكوفة ورضوا وأطاعوا فأحسنوا الطاعة ، وأحسن أمراؤهم السياسة .

ونظر عمار بن ياسر فإذا هو أمير لمصر عظيم من أمصار المسلمين وجيش عظيم من جيوشهم . وأكبر الظن أنه استحضر في نفسه ما لقي من الجهد والمحنة قبل أن يهاجر إلى المدينة ، وما لقي من الشدة والبأساء مع النبي بعد أن هاجر إلى المدينة ؛ فلم يقع هذا كله من نفسه موقعاً غريباً ، وإنما آمن بأن وعد الله حق . ولم يدفعه هذا كله إلى تكبر أو تجبر أو استعلاء ؛ لأنه استيقن كما استيقن نظراؤه من أصحاب النبي أن هذه الحياة الدنيا غرور ، وأنها فتنة يُمتَحَنُ بها أولو الحزم والعزم في أنفسهم ؛ فمن خلص منها كريماً نقيماً سليم القلب فهو من الناجين ، ومن رتع فيها حتى أَرْضَى غرائزه وشهواته فهو من الذين حَبِطَتْ أعمالهم وضل سعيهم وعُمِجِلَتْ لهم طياتهم في حياتهم الدنيا .

واستحضر ابن مسعود في أكبر الظن حياته تلك حين كان راعياً لغنيمات عُقبة بن أبي مُعَيْط ، قد أدبرت عنه الدنيا بسعتها

ودعنها وثرأها ونعيمها ، وذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قد رضى عن أمانته حين أبى أن يسقيه ويسقى صاحبه من اللبن ابن أبى معيط ، وذكر أن النبي ائتمنه على سره وضمه إليه وجعله من خاصته ، وذكر أن النبي قال فيه ذات يوم : « إن ساقه لأثقل فى الميزان يوم القيامة من أحد » ؛ فلم يزد هذا إلا إيماناً وتبشيراً وحبا للأمانة واستمسكاً بها ، وفاء لخليله ونصحاً لأئمة .

وقد أقام عمار ما شاء الله أن يقيم أميراً على الكوفة ، فكان يسيراً سَمِحاً لم يتغير من أمره شيء : صَمْتُ كثير ، وكلامٌ قليل ، واختلاطٌ بالناس كأنه رجل من عامتهم ، وإقامةٌ للعدل ، وحكمٌ بالقسط ، ونُصْحٌ فى الدين لا تكلف فيه ولا تَزِيدُ . سئل ذات يوم فى بعض ما يُشْكِل من أمور الناس فقال : أكان هذا بعد ؟ قالوا لا . قال : دُعوه حتى يكون ؛ فإذا كان تجشمنها لكم .

وكان يخرج فى حاجات بيته وأهله كما يخرج غيره من عامة الناس . تحدث من رآه وهو أمير الكوفة يشتري قَتناً بدرهم ، ثم يستريد البائع حبلاً فيأبى عليه البائع ، فيجاذبه عمار حبله وينازعه حتى يأخذ نصفه ، ثم يحمل قَتَّه على ظهره ويمضى به إلى داره وهو الأمير ، لا يُنكر من ذلك شيئاً ، ولا يرى أن شيئاً من ذلك يعرض من قدره أو يخط من مكانته ، ولا ينكر الناس من ذلك شيئاً ولا يرون أنه يُخسُّه عن المنزلة التى تنبغى للأمير . وكان عمار لا يغضب لنفسه مهما يُؤذ ؛ فإذا تعرض أحد لحق الله أو لحق

الناس غضب عمار حتى يأخذ بالحق وَيَرُدَّ الأمر إلى نصابه .
عرف أن رجلاً وَشَى به إلى عمر ، فلم يَزِدْ على أن قال : اللهم
إن كان قد كذب على فابسط له في الدنيا واجعله مُوْطَأَ الْعَقَبِ .
وَأَقْبَلَ بِجَيْشٍ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ مَدَدًا لِأَهْلِ الْبَصْرَةِ فِي بَعْضِ
الْمَوَاقِعِ . فَلَمَّا أَظْفَرَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ قَالَ لَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ : يَا أَجْدَعَ ،
أَتُرِيدُ أَنْ تَشَارِكُنَا فِي غَنَائِمِنَا ؟ فَلَمْ يَزِدْ عِمَارٌ عَلَى أَنْ قَالَ وَهُوَ يَضْحَكُ :
خَيْرَ أَذْنَى سَبَبَ . وَكَانَتْ أُذُنُهُ تَلِكُ قَدْ أَصِيبَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
يَوْمَ الْيَمَامَةِ . وَقَدْ أَبَى أَهْلُ الْبَصْرَةِ أَنْ يُشْرِكُوا عِمَارًا وَأَصْحَابَهُ فِي الْغَنِيمَةِ ،
وَأَبَى عِمَارٌ إِلَّا أَنْ يَأْخُذَ لِأَصْحَابِهِ حَقَّهُمْ مِنْهَا . فَكَتَبُوا فِي ذَلِكَ إِلَى عِمَارٍ ،
فَكَتَبَ إِلَيْهِمْ عِمَارٌ : إِنَّمَا الْغَنِيمَةُ لِمَنْ شَهِدَ الْوَقْعَةَ . وَأَخَذَ عِمَارٌ وَأَصْحَابَهُ
حَقَّهُمْ . وَكَانَ عِمَارٌ يُخَالِفُ بَيْنَ وُلَاتِهِ عَلَى الْأَمْصَارِ ، لَا يَكَادُ
يَمُدُّ لِأَحَدِهِمْ فِي الْوَلَايَةِ . فَلَمَّا عَزَلَ عِمَارًا وَلَقِيَهُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْمَدِينَةِ
قَالَ لَهُ : أَسَاعُكَ عَزَلُنَا إِيَّاكَ ؟ فَأَجَابَهُ عِمَارٌ : أَمَّا إِذْ قُلْتَ ذَاكَ
فَقَدْ سَاعَنِي حِينَ اسْتَعْمَلْتَنِي وَسَاعَنِي حِينَ عَزَلْتَنِي . ثُمَّ فَرَّغَ عِمَارٌ لِلْعِبَادَةِ
وَالطَّاعَةِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَتَأْدِيبِ النَّاسِ فِي دِينِهِمْ مَا بَقِيَ مِنْ أَيَّامِ
عِمَارٍ وَصَدْرًا مِنْ أَيَّامِ عُثْمَانَ . وَلَكِنْ عِمَارًا يَعْلَمُ ذَاتَ يَوْمٍ أَنَّ عُثْمَانَ
قَدْ أَمَرَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ عَلَى مِصْرَ ، فَيَحْضُرُهُ خَاطِرُ
مَوْلَى يُمِيرُهُ فِي نَفْسِهِ ثُمَّ يُلْقِيهِ فِي أَعْمَاقِ ضَمِيرِهِ لَا يَحْدِثُ بِهِ نَفْسَهُ
بَعْدَ ذَلِكَ وَلَا يَحْدِثُ بِهِ النَّاسَ ، يَذْكُرُ أَنَّ آيَةَ فِي الْقُرْآنِ قَدْ أَنْزَلَتْ
أَشِيرَ فِيهَا إِلَيْهِ وَإِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ هَذَا الَّذِي أَمَرَ عَلَى مِصْرَ ،

وهي قول الله عز وجل : « مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ، وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » . وكان المسلمون يرون أن عبد الله بن أبي سرح هو الذي أشير إليه في قول الله عز وجل : « مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا » .

يقول عمار لنفسه إن عبد الله بن أبي سرح قد عاد بأخـرة إلى الإسلام ، فحسب أن يكون قد تاب وأصلح ، وعسى الله أن يكون قد حطّ عنه ثقل الكفر بعد الإيمان . ولكن سيرة عبد الله بن أبي سرح في مصر تُصبح موضع الشكوى بين المصريين كسيرة غيره من ولاة عثمان في الكوفة والبصرة . ثم تكثر الشكوى ويشيع النكير ، حتى يغضب المهاجرون والأنصار في المدينة ويتكلمون في ذلك ، ثم يجتمعون ويتشاورون . ويذهب عمار إلى عثمان عن نفسه أو عن وراءه من المسلمين ليحدثه برأى الناس في ولاته ، فلا يُرضى قوله عثمان ، ويعظم الأمر بينهما ، حتى يأمر عثمان بإخراجه ، فيخرجه غلامه ويضربونه حتى يُعشى عليه ، وحتى يظن الناس أنه الموت . ولكن عماراً يفيق ويقول : طالما عذبنا في الله من قبل . ويُصبح منذ ذلك اليوم زعيماً من زعماء المعارضة لعثمان .

لبث عبد الله بن مسعود في الكوفة بعد أن عُزِلَ عنها عمار
ابن ياسر ، لم يَعُدْ إلى المدينة ، ولم يُنَحَّ عن عمله ، وإنما ظل
أميناً على بيت مال الكوفة مُعَلِّماً لأهلها مشيراً على ولائها . وقد
علم الناس فأحسن تعليمهم ، فملأ قلوبهم حباً له وإعجاباً به ،
وترك في نفوسهم أقوى الأثر وأبقىه .

ولم يكن ذلك غريباً ؛ فقد لزم ابن مسعود رسول الله فاطال
لزمه ، حتى ظن بعض أصحابه أنه من أهل البيت ، وأخذ من
فم النبي سبعين سورة من القرآن لم يُنازعه فيهنَّ أحد ، وكان
النبي يحب قراءته للقرآن ويحبها إلى الناس ويقول : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ
يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أَنْزَلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدِ » .

وكان عبد الله شديد التأثير للنبي في قوله وعمله وفي حركته
وسكونه وفي تحدّثه إلى الناس واستماعه لهم ، وفي تأتّيه للأمور حين
تعرض ، وثباته للخطوب حين تشدّ ، وكان شديد الاقتداء به
في هذا كله ، حتى اتفق الذين عرفوه من أصحاب النبي أنه كان
أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم في هديه وسنّته ودأبه (١) .

(١) الهدى والسمت والدل ، قريب معنى بعضها من بعض ، وهي عبارة عن
الحالة التي يكون عليها الإنسان من السكينة والوقار وحسن السيرة والطريقة .

وكان حذيفة ابن ايمان يقول : ابن مسعود أشبه الناس برسول الله
 صلى الله عليه وسلم هدياً وسمياً ودلاً حتى يُواريه جدار بيته .
 وكان ابن مسعود يُقرئ الناس القرآن أثناء إقامته في الكوفة ،
 ويَعِظُهم عشية كل خميس ، يقوم فيهم خطيباً معتمداً على عصاً ،
 فيتكلم ما شاء الله أن يتكلم ثم يسكت ، وأحبّ شيء إلى سامعيه
 أن يمضي فيما كان فيه من حديث . ولم يكن ابن مسعود يخاف
 شيئاً كما كان يخاف الرواية عن النبي ، شأنه في ذلك شأن المتحفّظين
 الذين سمعوا النبي يقول : « مَنْ كَذَبَ عَلَىَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ
 مِنَ النَّارِ » ؛ فأشفقوا أن يتحدثوا عنه فيخطئوا صدق الحديث وهم
 لا يشعرون . وجرى مرة على لسان ابن مسعود وهو يعظ الناس قوله :
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلم يكذ هذا القول يجرى
 على لسانه حتى أخذته رعدةٌ عنيفة اضطرب لها جسمه كله
 وتزعزت لها العصا التي كان يعتمد عليها وتصبّب العرق على جبهته ،
 فقال أو فوق هذا ، أو نحو هذا ، أو دون هذا ! ولم يرض أهل
 الكوفة عن أحد من ولاتهم كما رضوا عن عبد الله بن مسعود وعن
 أبي موسى الأشعري . وقد تُوفّي عمر رضي الله عنه وابن مسعود أمير على
 بيت المال في الكوفة ، فأقره عثمان على عمله . حتى إذا كانت ولاية
 الوليد بن عُقبة للكوفة حدثت أحداث حولت ابن مسعود إلى المعارضة ،
 وكان ابن مسعود قبل هذه الأحداث من أرضي الناس عن عثمان
 وأحسنهم ذكراً له ودعاءً إليه .

وقد حدث بعض هذه الأحداث في الكوفة ، وحدث بعضها الآخر في المدينة . فأما ما حدث منها في الكوفة فسياسة جديدة في بيت المال لم يألّفها عبد الله بن مسعود ولم يكن ليطمئن إليها أو يرضاها . فقد كان الوليد يتوسع في النفقة ، ويرى أن له أن يصنع بحال المسلمين ما يشاء . وكان ابن مسعود قد ألف منذ أيام عمر أن أموال بيت المال ملك للمسلمين لا للأمراء ، وأن الأمراء لا ينبغي أن يُنفقوا إلا بحقها وفي الوجوه التي تنفع عامة المسلمين .

وإلى جانب هذه السياسة المالية الجديدة كان للوليد بن عُقبة سيرة لم يرض عنها خيار أهل الكوفة . وقد أنكر ابن مسعود ما أنكر الناس ، وكره الوليد منه هذا الإنكار ، واشتد الخلاف بينهما . وكان الناس إلى ابن مسعود أميل ، وله أحب ، ولقوله أكثر استماعاً . وأما ما حدث في المدينة فانتداب عثمان لجمع القرآن في مصحف واحد وقراءة واحدة .

وقد أَلّف عثمان لهذا العمل الخطير لجنة من حُفَظ المسلمين . وجعل رياستها نزيّد بن ثابت . وليس من شك في أن عثمان قد نصّح للمسلمين في هذا العمل ، وكره لهم أن يختلفوا في قراءة

كتاب الله . ولما تم له جمع المصحف أذاعه في الأمصار ، وحظر
 القراءة على غير ما كتب فيه ، وتقدم في تحريق غيره من الصحف
 التي كتب فيها القرآن قبل أن يجمع المصحف الإمام . فكره ابن مسعود
 ذلك ، وكان من أقرأ الناس وأحفظهم ، وأبى أن يذعن لأمر عثمان .
 ثم لم يكتف بذلك ، وإنما جعل يلهج بنقد ما تقدم فيه عثمان وبنقد
 سيرة الوليد في الكوفة . وكان إذا خطب الناس يوم الخميس
 من كل أسبوع قال لهم فيما كان يقول : إن أصدق القول كتاب
 الله ، وأحسن الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ،
 وكل محدث بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .
 ورأى الوليد في هذا الكلام تعريضاً به وبعثان ، فتقدم إلى ابن
 مسعود في ألا يعيده ؛ فلم يحفل به ابن مسعود ولم يلتفت إليه . فكتب
 فيه إلى عثمان ، وكتب إليه عثمان يأمره بإخراج ابن مسعود من الكوفة
 وإرساله إلى المدينة ففعل . وخرج الناس يشيعون ابن مسعود إلى
 ظاهر الكوفة محزونين يلحون عليه في أن يبقى بينهم ، ويخافون
 عليه من عثمان أن يبطش به أو يناله بمكرهه ، ويعاهدونه على
 أن يحموه فلا تصل إليه يد بسوء ؛ ولكنه أبى عليهم قائلاً : إن هذا
 أمر سيكون ، وما أحب أن أكون أول من فتحه . ودخل المدينة
 ذات ليلة ، فلما أصبح غدا على المسجد ، وكان ذلك اليوم يوم
 جمعة . فلما رآه عثمان قال له قولاً غليظاً وعابه من أعلى المنبر ، فرد
 عليه ابن مسعود قائلاً : لست كما تقول ، ولكني صاحب رسول الله

صلى الله عليه وسلم يومَ بَدْرَ ويومَ أُحُدٍ وَيَوْمَ الْخُنْدَقِ وَيَوْمَ
 بَيْعَةِ الرضوان . ونادت عائشة رحمها الله من وراء الستر : وَيَحْكُ
 يَا عَثْمَانُ ! أَتَقُولُ هَذَا لِصَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !
 فَقَالَ لَهَا عَثْمَانُ : اسْكُتِي ، ثُمَّ أَمَرَ بَعْضَ غُلَمَانِهِ بِإِخْرَاجِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ .
 فَأَقْبَلَ غُلَامٌ أَسْوَدٌ طَوَالَ فَاخْتَمَلَ ابْنَ مَسْعُودٍ وَأَخْرَجَهُ مِنَ الْمَسْجِدِ
 إِخْرَاجًا عَنِيفًا ، وَابْنُ مَسْعُودٍ يَحَاوِلُ أَنْ يُفْلِتَ مِنْهُ وَرِجْلَاهُ تَخْتَلِفَانِ
 عَلَى كَتْفَيْهِ وَهُوَ يَصِيحُ بِعَثْمَانَ : أَنْشُدْكَ اللَّهَ لَا تُخْرِجْنِي مِنْ مَسْجِدِ
 خَلِيلِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَلَكِنَّ الْغُلَامَ يَمْضِي بِهِ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَابَ
 الْمَسْجِدِ ضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ فَكُسِّرَتْ إِحْدَى أَضْلَاعِهِ ، وَحُمِلَ إِلَى بَيْتِهِ
 مَكْرُوبًا .

ثُمَّ لَمْ يَقِفِ الْأَمْرُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ ، وَإِنَّمَا حَرَّمَهُ عَثْمَانُ عَطَاءَهُ
 سَتَيْنِ . فَأَقَامَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي الْمَدِينَةِ مَغْضُوبًا عَلَيْهِ مِنَ الْإِمَامِ ،
 يُؤَادُّهُ عَلَى رَغْمِ ذَلِكَ صَدِيقُهُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ . حَتَّى إِذَا
 أَدْرَكَهُ الْمَرَضُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ عَرَفَ عَثْمَانُ أَنَّهُ مُشْرِفٌ عَلَى الْمَوْتِ .
 وَهَذَا يَخْتَلِفُ الرِّوَاةُ : فَأَمَّا النَّاqَمُونَ عَلَى عَثْمَانَ فَيَقُولُونَ إِنَّهُ سَعَى إِلَى
 ابْنِ مَسْعُودٍ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ وَعَرَضَ عَلَيْهِ عَطَاءَهُ وَسَأَلَهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ
 لَهُ ، فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ ابْنُ مَسْعُودٍ شَيْئًا ، وَوَسَطَ عَثْمَانُ أُمَّ حَبِيبَةَ زَوْجَ
 النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ ابْنِ مَسْعُودٍ فَلَمْ يَقْبَلْ لَهَا وَسَاطَةَ .
 وَمَاتَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَالْأَمْرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَثْمَانَ عَلَى شَرٍّ مَا يَكُونُ . وَقَدْ
 يَغْلُو النَّاqَمُونَ عَلَى عَثْمَانَ فَيَزْعُمُونَ أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ أَوْصَى أَلَا يُصَلِّيَ

عليه عثمان ، وأنّ عمار بن ياسر تلقى هذه الوصية وأنفذها ، فكان هذا مما زاد غضب عثمان على عمار .

وأما الذين يتولّون عثمان ويحسنون الظن بهؤلاء النفر من المهاجرين فيقولون : إن عثمان عاد ابن مسعود في مرضه واعتذر إليه ، فقبل منه واستغفر كلا الرجلين لصاحبه ، ومات ابن مسعود فصلى عليه عثمان وقام على قبره وأحسن الثناء عليه . وهذا أشبه بسيرة الرجلين جميعاً .

ويدخل الزبير بن العوام على عثمان ، وكان ابن مسعود قد أوصى إليه فيقول له : ادفع إلىّ عطاء ابن مسعود ، فإن عياله أحق به من بيت المال . قال عثمان نعم ! ثم أدّى إلى الزبير عطاء ابن مسعود ومثله معه ، وأمر خازن بيت المال فدفّع للزبير خمسة وعشرين ألفاً .

ويجتمع أهل الكوفة بعد ذلك بسنين حول عليّ رضي الله عنه ، ويذكّر ابن مسعود ، فيقولون لعليّ : يا أمير المؤمنين ، ما رأينا رجلاً كان أحسن خلقاً ولا أرفق تعليماً ولا أحسن مجالسة ولا أشدّ ورعاً من عبد الله بن مسعود . فقال عليّ : كتشّدتكم الله ، إنه لصدق من قلوبكم ؟ قالوا نعم . فقال : « اللهم إني أشهدك ، اللهم إني أقول فيه مثل ما قالوا أو أفضل » .

لم يشتد أحد من أهل المدينة في معارضة عثمان حين ظهرت
الفتنة كما اشتد عمار بن ياسر ، كان على الفطرة كما وصفه النبي
صلى الله عليه وسلم ، وكان يكره التأول ويكره المتأولين ، وكان
يحب من القول أصرحه ، ومن العمل أوضحه ، ومن السيرة أشدها
استقامة وأبعدها عن العوج والالتواء . وكان الدين الخالص قطعة
من طبعه وعنصراً مقوماً لمزاجه ، وكان أزهى الناس في الدنيا وأقلهم
احتفالاً بمنافعها ، وأشدّهم خوفاً من الفتنة ، وأكثرهم انصرافاً عن
تعقيد السياسة والتواءها . كان يحب الحق ويسعى إليه ، ولا
يحب إلا الحق ولا يسعى إلا إليه . وقد رأى من سيرة النبي وصاحبيه
استقامة لا عوجَ فيها ، وصراحة بريئة من الغموض ؛ فاستقر
في نفسه أن أمر السلطان يجب أن يستقيم دائماً كما استقام للنبي
وصاحبيه . فلما رأى اختلاط الأمر واشتباك المنافع واختلاف الأهواء
أيام عثمان ، شقّ عليه هذا كله ، فلم يستطع قلبه أن يُسيغه ، ولم
تستطع فطرته أن تطمئن إليه ، فأنكر فيما بينه وبين نفسه ولاذ
بصمته الطويل ، واستعاذ بالله من الفتنة كأشد ما يستعيد الإنسان
بالله منها . ثم رأى الناس وسمعهم ينكرون ، فلم يكدر يفكر ويقدر

ويستقصي حتى أنكر كما أنكروا وعارض كما عارضوا ، ولكنه على ذلك استمسك بالصمت واستعاذ بالله من الفتنة ؛ حتى رأى وسمع أولئك الشيوخ من أصحاب رسول الله ومن المهاجرين بينهم خاصة ينكرون ، فجعل اليقين يستبين له .

وتحدث الناس في المدينة ذات يوم أن عثمان أخذ شيئاً من جوهر كان في بيت المال فحلى به بعض أهله ، وجعل المهاجرون والأنصار يقولون في ذلك حتى أكثروا . وتكلم عثمان على المنبر ذات يوم فقال : لَنَا خُذَنَّا حَاجَتَنَا مِنْ هَذَا الْمَالِ وَإِنْ رَغِمَتْ أَنْفُ أَقْوَامٍ . قال عليٌّ : إِذْنُ تَمْتَنَعُ مِنْ ذَلِكَ . وقال عمار : أَشْهَدُ اللَّهَ أَنْ أَنْتَ أَوَّلُ رَاغِمٍ . وقد سكت عثمان لقول عليٍّ وغضب لمقالة عمار فشتمه ، وكان هذا ، في بعض ما يُروى ، أول الشر الذي انتهى إلى ضرب عثمان لعمار حتى أصابه الفتق وُغشي عليه وفاتته صلوات الظهر والعصر والمغرب . ثم أفاق فتوضأ وصلاه ، وذكر فتنة قريش له وتعذيبها إياه في الإسلام . ومنذ ذلك اليوم خرج من صمته ، وجعل يقوم ويقعد بتقد عثمان . حتى إذا أقبل الثائرون من الأمصار لم ينكر عليهم ولم يحاول ردهم . ثم قُتِلَ عثمان فلم يأْسَ على قتله ، وربما جادل في أن عثمان قد قُتل مؤمناً أو كافراً . وقد خاصم الحسن بن عليٍّ في ذلك . كان الحسن يرى أن عثمان مات مؤمناً ، وكان عمار يزعم أنه مات كافراً . واشتد الجدل بينهما حتى ارتفعا فيه إلى عليٍّ رحمه الله ، فكفَّ عليٌّ عماراً عن مثل هذا الجدل في رفق .

ولم يشتدَّ عمار في شيء بعد قتل عثمان كما اشتد في مناصرة عليّ ولا سيما حين ثارت الحرب بينه وبين معاوية . في ذلك الوقت استبان الحق لنفس عمار وقلبه وضميره ، ولم يشك لحظة في أن عليّاً وأصحابه كانوا على الحق ، وفي أن معاوية وأصحابه كانوا على الباطل . ولم يُقبل عمار على حرب خالص النية فيها لله ورسوله بعد وفاة النبي كما أقبل على حرب صفيّين . كانت مقالة النبي له : « تقتلك الفئة الباغية » قد استقرت في أعماق نفسه ، وكأنها ظهرت له جليلة نقية ناصعة ساطعة حين خرج مع عليّ وأصحابه يقصدون قصدَ صفيّين . هنالك لم يشكَّ عمار في أن معاوية وأصحابه هم الفئة الباغية ، وفي أن هذه الحرب التي كانوا ينصبونها لابن عمّ النبي إنما كانت تُشبه غيرها من الحروب التي كانت قرين تنصّبها للنبي نفسه يوم بدر ويوم أحد ويوم الخندق . فخرج عمار إذن إلى حرب صفيّين على بصيرة من أمره ، قد أخلص قلبه لله ، ووهب نفسه لله ، وابتغى الشهادة في صفيّين كما كان يبتغيها في المشاهد التي شهداها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد سمعه من سمعه وهو يقول ذات يوم أثناء مسيره إلى صفيّين على شط الفُرات : اللهم إنه لو أعلم أنه أرضى لك عني أن أرمي بنفسي من هذا الجبل فأتردّي فأسقط فعلتُ . اللهم لو أعلم أنه أرضى لك عني أن ألقى نفسي في الماء فأغرق نفسي فعلتُ ؛ فأني لا أقاتل إلا أريد وجهك ، وأنا أرجو ألا تخينني وأنا أريد وجهك .

وكان عمار في ذلك الوقت قد جاوز التسعين ، ولكن الناس ينظرون إليه فإذا هو قد استرد من القوة والشباب والنشاط ما لم يكن لهم عهد به من قبل . كان أسرعهم إلى الحرب وأكرهم للقعود ، وأحبهم للموت ، وأبغضهم للحياة ، وكان مستيقناً يقيناً لا يعرض له الشك أنه على حق ، وأنه يقاتل في سبيل الله . وقد اشتدت الحرب بين الفريقين بصفين يوماً ويوماً . فلما كان اليوم الثالث قال معاوية : هذا يوم تتفانى فيه العرب إلا أن تُدركهم خِفةُ العبد . يريد بالعبد عماراً ، ويريد بخفته شدة نشاطه في الحرب واستخفافه بما تحتاج إليه من مكر وكيد وأناة .

وفي هذا اليوم قاتل عمار نهاره كله حتى ملأ قلوب الناس عجباً وإعجاباً . وكانوا يرونه شيخاً طويلاً آدم ، تُرْعَدُ الحربه في يده ، وهو خفيف الحركة موفور النشاط ، يسعى هنا وهناك ، يحرض هذا وذاك ، وفريق من المسلمين يرقبونه ويتحدثون ببلائه ، بعضهم يصحب جيش على ولكنه لا يقاتل كخزيمه بن ثابت الأنصاري الذي سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعمار : «تقتلك الفئة الباغية» ، ورأى عماراً يقاتل مع عليٍّ فهو يرقب عماراً ليرى آخرته . وبعضهم مع معاوية يشهد الحرب ولا يُشارك فيها ، بلغته مقالة النبي في عمار فهو يرقب عماراً وينتظر آخرته . ومن هؤلاء هنى مولى عمر بن الخطاب رحمه الله . في ذلك اليوم قاتل عمار وهو على رأس كتيبته حتى كانت العصر ، فلما جعل الأصيل

ينشر أشعته الشاحبة الحزينة على المقتتلين اشتد نشاط عمار وأخذه شيء يشبه أن يكون شغفاً بالموت ، فجعل يحثّ مَنْ حوله على القتال ويصيح : البلخنة تحت أطراف العوالى . اليوم ألقى الأحبة ، محمداً وحزبه ، وكان صائماً . فلما وجبت الشمس قال اسقوني . فجىء بشربة من لبن ، فلما رآها ضحك وشرب ثم قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آخرُ زادك من الدنيا لبنٌ حتى تموت » ، ثم جعل يحرّض الناس ويُعيد مقالته : البلخنة تحت أطراف العوالى ، الظمآن يرد الماء ، الماء مورود ، اليوم ألقى الأحبة ، محمداً وحزبه .

وقد انكشف أصحاب على شيئاً ، فلم يُوهن ذلك من نفس عمار ولم يبنع من يقينه شيئاً ، وإنما جعل يقول : والله لو ضربونا حتى يبلغونا سَعَمَاتِ هَجَرَ لعلمتُ أننا على حق وأنهم على ضلالة . وكانت راية معاوية مع عمرو بن العاص ، فجعل عمار ينظر إليها ويقول : لقد قاتلت صاحب هذه الراية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات وهذه الرابعة . وكانت راية على مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، وكان هاشم أعور ، فكان عمار يحثه ، يُغلظ عليه مرة فيقول : تقدّم يا أعور ، ويرفق به مرة أخرى فيقول : تقدّم يا هاشم فذاك أبى وأمى ! وكان هاشم يقول له : رحمك الله يا عمار ! إني إنما أزحف بالواء وأرجو أن يفتح الله علىّ ويُبلغنى ما أريد ، وإن فى العجلة الهلكة . فيقول له تقدّم فذاك أبى وأمى ! وما يزال به حتى يتقدم . فإذا رأى عمار صاحب

الراية يتقدم بها صاح بمن حوله : مَنْ رَاحٌ إِلَى اللَّهِ ! مَنْ رَاحَ إِلَى الْجَنَّةِ ! ثُمَّ انْدَفَعَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ .

وَقَدْ رَأَى خُزَيْمَةُ بْنُ ثَابِتٍ مَصْرَعَ عِمَارٍ فَقَالَ : الْآنَ اسْتَبَانَ لِي الضَّلَالَةُ ، ثُمَّ دَخَلَ فِسْطَاطَهُ فَاغْتَسَلَ ، ثُمَّ لَبَسَ سِلَاحَهُ ثُمَّ تَقَدَّمَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ .

وَأَمَّا هُنَى مَوْلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَدْ عَرَفَ عِمَارًا حِينَ أَسْفَرَ الصُّبْحَ ، فَأَقْبَلَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْعَاصِ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى سَرِيرِهِ وَمَنْ حَوْلَهُ نَفَرٌ يَتَحَدَّثُ إِلَيْهِمْ ، فَقَالَ هُنَى : أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ! قَالَ عُمَرُو : مَا تَشَاءُ ؟ قَالَ هُنَى : انْظُرْ أَكَلَمْتُكَ . فَقَامَ عُمَرُو حَتَّى خَلَا إِلَيْهِ . قَالَ هُنَى : عِمَارُ بْنُ يَاسِرٍ ، مَاذَا سَمِعْتَ فِيهِ ؟ قَالَ عُمَرُو : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : تَقْتُلُهُ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ . قَالَ هُنَى : هَا هُوَ ذَا مَقْتُولٍ . قَالَ عُمَرُو : هَذَا بَاطِلٌ . قَالَ هُنَى : بَصُرْتُ عَيْنِي بِهِ مَقْتُولًا . قَالَ عُمَرُو : هَاهُمْ أَرْزِيهِ . فَذَهَبَ بِهِ حَتَّى رَأَاهُ بَيْنَ الْقَتْلَى . فَلَمَّا رَأَاهُ امْتَقَعَ لَوْنَهُ ، ثُمَّ أَعْرَضَ فِي شِقِّ ، وَقَالَ : إِنَّمَا قَتَلَهُ مَنْ أَخْرَجَهُ .

وَكَانَ عِمَارٌ قَدْ قَالَ لِأَصْحَابِهِ مَسَاءَ ذَلِكَ الْيَوْمِ : لَا تَغْسَلُونِي وَلَا تَحْشُوا عَلَيَّ تَرَابًا فَإِنِّي مُخَاصِمٌ . فَلَمَّا قُتِلَ أَقْبَلَ عَلَى فَصْلِي عَلَيْهِ ، وَلَمْ يُغَسَّسْهُ وَقَالَ : « إِنِّ امْرَأٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَعِظْ عَلَيْهِ قَتْلُ ابْنِ يَاسِرٍ وَتَدْخُلُ بِهِ عَلَيْهِ الْمَصِيبَةُ الْمَوْجِعَةُ لَغَيْرِ رَشِيدٍ . رَحِمَ اللَّهُ عِمَارًا يَوْمَ أَسْلَمَ ، وَرَحِمَ اللَّهُ عِمَارًا يَوْمَ قُتِلَ ، وَرَحِمَ اللَّهُ عِمَارًا يَوْمَ يَبْعَثُ حَيًّا !

لقد رأيت عماراً وما يُذكرُ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعةٌ إلا كان رابعاً ، ولا خمسة إلا كان خامساً . وما كان أحد من قدماء أصحاب رسول الله يشك أن عماراً قد وجبت له الجنة في غير موطن ولا اثنين . فهنيئاً لعمار بالجنة . ولقد قيل : إن عماراً مع الحق والحق معه يدور . عمار مع الحق أينما دار ، وقاتل عمار في النار !

أقبل رجلان من أصحاب معاوية حتى دخلا عليه فسطاطه ومعه عمرو بن العاص وعبد الله بن عمرو ونفرٌ من أصحابه ، فجمعوا يختصمان في قتل عمار ، كلهم يزعم أنه قاتله . قال عبد الله بن عمرو : لِيَطْبُ به أحدٌ كما نفساً لصاحبه ، وإنما تختصمان في النار ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تقتل عماراً الفئة الباغية ، وقاتله وسالبه في النار » . قال معاوية لعمرو : ألا تكفُّ عنا مجنونك يا عمرو ! ثم التفت إلى عبد الله بن عمرو وقال له : إن كان هذا رأيك فمالك معنا ؟ قال عبد الله : إن أبي شكاني لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرني أن أطيعه ما دام حياً ؛ فأنا معكم وليست أقاتل . قال معاوية : لم نقتله ، إنما قتله من جاء به .

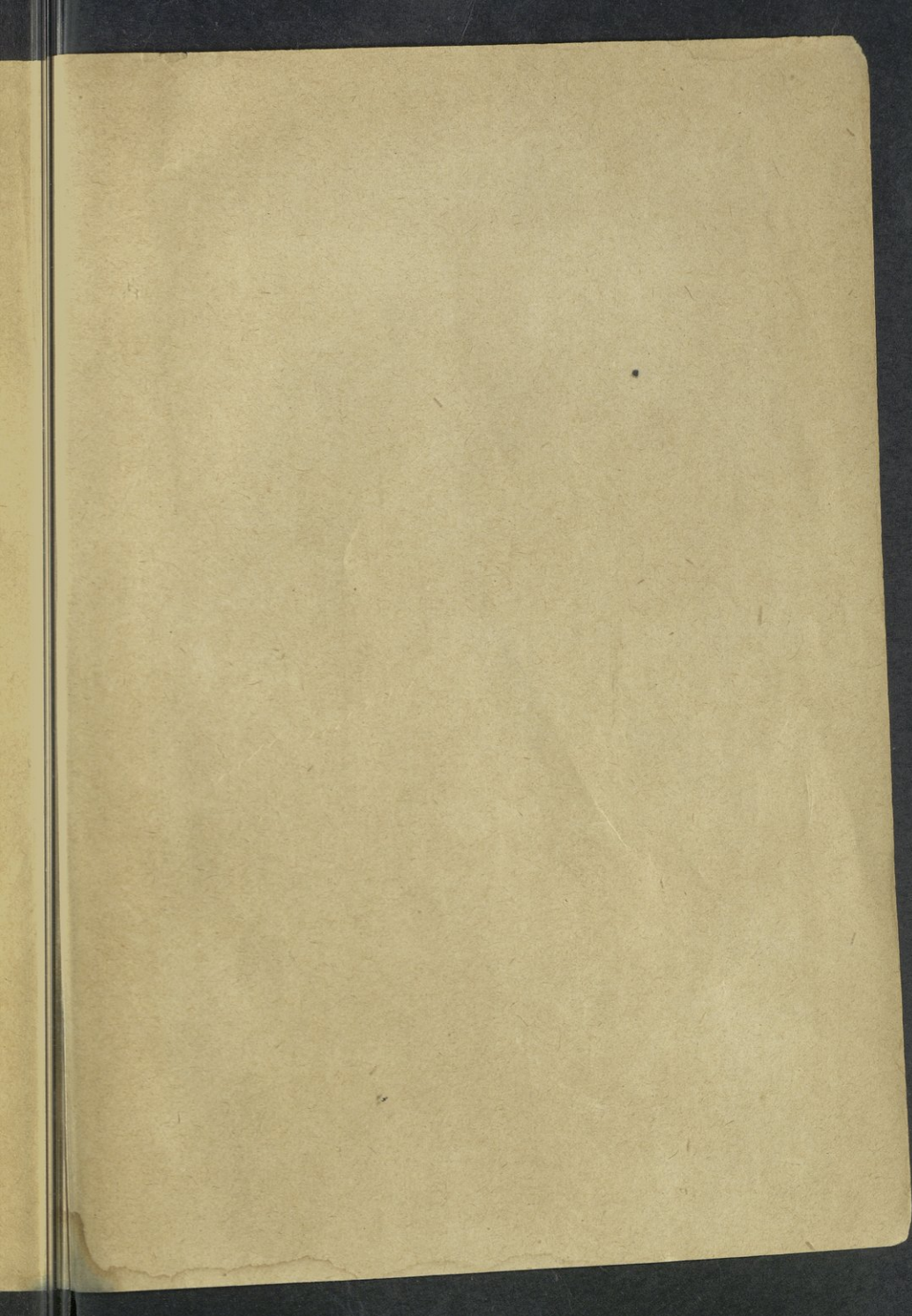
جلس عمرو بن العاص إلى جماعة من أصحابه يسمّر معهم بعد أن خلع الأمر كله لمعاوية ، فقال له بعض القوم : إنا نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحبك وكان يستعملك أبا عبد الله . قال عمرو : أما إنه كان يستعملني ، وما أدري أكان يحبني أم كان يتألفني ، ولكننا نرى أن رجلاين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي رسول الله وهو لهما محب وعنهما راض . قال القوم : من هما ؟ قال عمرو : عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر . قال القوم : عمار بن ياسر ! فذاك قتيلكم يوم صفين ؟ ! قال عمرو : صدقتم ! والله لقد قتلناه !

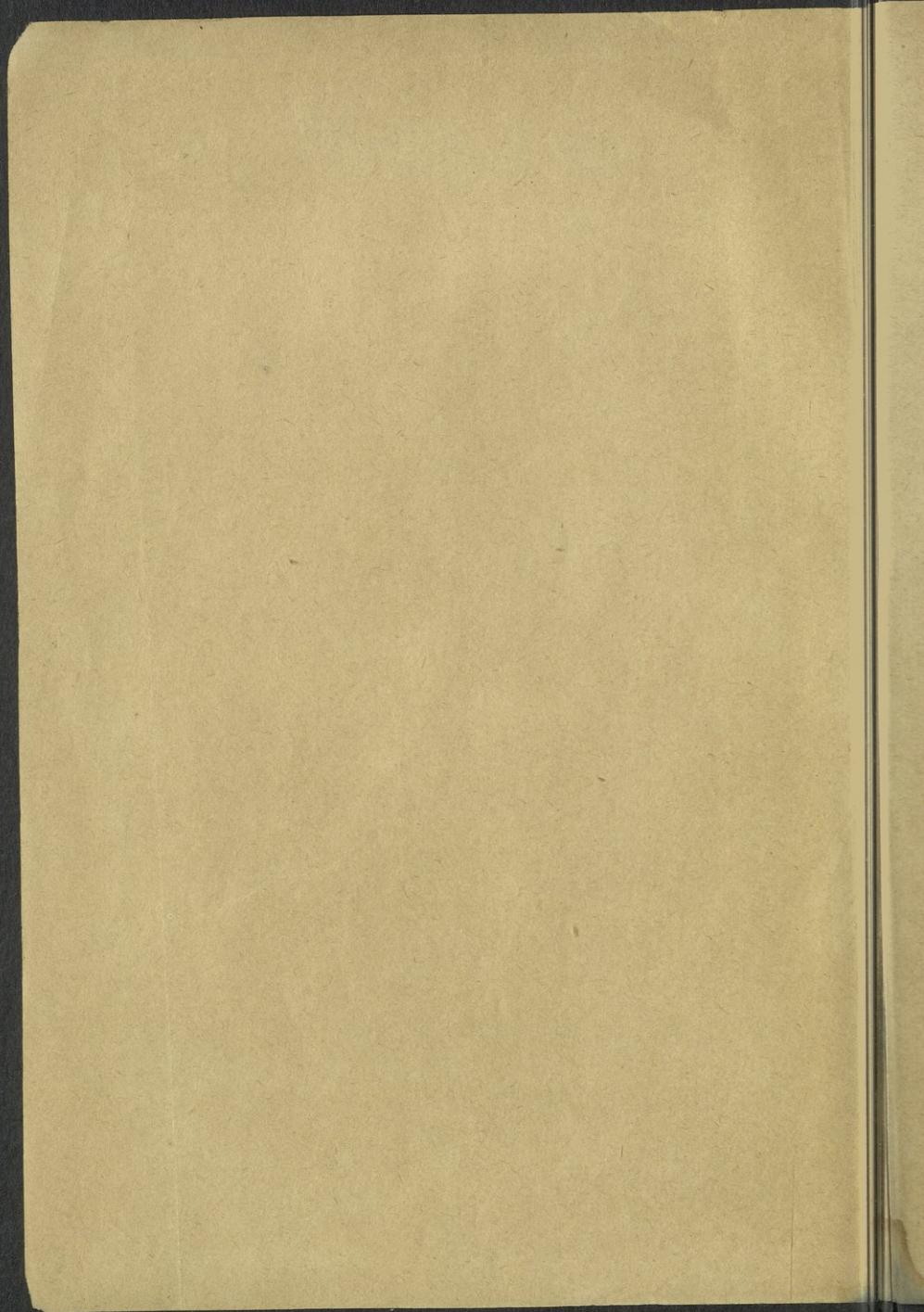
كان عمار على رأس كتيفته يوم قُتل ، وكان ذا الكلاع الحميري من أصحاب معاوية على رأس الكتيفة المواجهة لعمار ، فقتلا كلاهما . وتحدث ابن سعد عن أصحابه أن عمرو بن شرحبيل أبا ميسرة رجلا من أصحاب عبد الله بن مسعود ومن خيرهم ، قال : رأيت في المنام روضة خضراء فيها قبابٌ مضروبة فيها عمار ، وقباب مضروبة فيها ذو الكلاع . فقلت : كيف هذا وقد اقتتلوا ؟ ف قيل : وجدوا ربّا واسع المغفرة .

وأطرق القاص حين بلغ هذا الموضع من حديثه إطراقةً طويلة ،
حتى ظن سامعوه أنه لن يقول شيئاً ففهموا أن يتفرقوا ، ولكنه رفع
إليهم رأسه وتلا عليهم قول الله عز وجل : « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى
الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ
وَنُتِمَّكُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا
مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » . ثم قال بعد أن سكت سكتة قصيرة :
صَدَقَ اللَّهُ وَعْدَهُ ! لقد أورث هؤلاء المستضعفين أرضه ،
وأدال لهم من قيصر وكسرى ، وجعلهم أئمة للناس ما عاشوا ،
حتى إذا اختارهم لجواره وآثرهم بنعيمه جعل ذكرهم خالداً ، وسيرتهم
رضا ، وحياتهم قدوةً صالحة وأسوة حسنة ؛ فهم أئمة للمسلمين حتى
يرث الله الأرض ومن عليها .

پیرا کافا — مولان

سپتمبر سنه ۱۹۴۹





Stamp: JAFET LIBRARY - 2 DEC 2002 - Circulation Dept. 4

[illegible]

حسين طه

الوعد الحق

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01037872

American University of Beirut

Vol. ٦

Ed. I



General Library

